

سلسلة  
وقفات تربوية  
في ضوء القرآن الكريم

المجلد الأول

وقف لله تعالى  
ولا يجوز بيعه

# حقوق الطب و محفوظات المؤلف

إلّا لمن أراد طبّعه وتوزّيعه

مجاناً

بعد أخذ الإذن من المؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٩ هـ

رقم الإيداع: ٢٠١٧/١٧٥٠٣

ISBN: 798-977-430-226-8

القسطاوي

للطباعة والتجليد

١١٢٠١٣١٩٩٩٥٥٥

وقف الله تعالى  
ولا يجوز بيعه

وقفات ترويحه  
ولا يجوز يسه

سلسلة  
وقفات ترويحه  
في ضوء القرآن الكريم

## المجلد الأول

وَيَتَضَمَّنُ الرَّسَائِلَ :

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾

[سورة الأنعام: ١٥٢]

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَحْدَةٍ﴾

[سورة سبأ: ٤٦]

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾

[سورة آل عمران: ١٦٥]

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

[سورة الأنعام: ٨٣]

﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾

[سورة البقرة: ٢١٤]

عبد الغني بن سائر المجتهد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً. ما ترك خيراً إلا دل أمته عليه ولا شراً إلا حذرنا منه .

وإن من أعظم ما دلهم عليه وحثهم عليه الاجتماع والاعتصام بحبل الله عز وجل ؛ قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال عز من قائل: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال الرسول ﷺ لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه وهو يسأله عن الفتن وسبيل النجاة منها: «... الزم جماعة المسلمين وإمامهم»<sup>(١)</sup>. وقال عليه الصلاة والسلام: «عليكم بالجماعة»<sup>(٢)</sup>، وقال: «إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه البخاري في الفتن (٧٠٨٤)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٧).

(٢) رواه أحمد (١٤٥/٥)، والنسائي في الإمامة (١٠٧/٢)، والترمذي في الفتن (٢١٦٥) والحديث في صحيح سنن النسائي (٨١٧).

(٣) رواه أحمد (١٩١/٥)، وأبو داود في الصلاة (٥٤٧)، والنسائي في الإمامة (١٠٧/٢). والحديث في صحيح سنن أبي داود (٥١١).

والآيات والأحاديث في هذا الأمر كثيرة .

وإن اجتماع كلمة المسلمين اليوم - وبخاصة دعاة الحق من علماء الأمة ورجال الدعوة المخلصين - أصبح أمراً لا بديل عنه ، وضرورة ينبغي أن تسبق كل ضرورة ؛ فنصرة الله تعالى لعباده المؤمنين مشروطة بشروط تمر عبر الاجتماع ووحدة كلمة أهل الحق .

وإن هذه الوحدة ينبغي أن تتجه القلوب لتحقيقها ، وترتفع الأكف في طلبها ، ويتحرك المخلصون في تحصيلها ، فإلى متى يدور المسلمون في حلقة مفرغة؟! ، وإلى متى هذا التحزب والانشطار والتساقط المتتابع للجماعات والدعاة تحت قوة الدافع ومرارة الانقسام والاختلاف!؟

إن الكثيرين من الدعاة قد أعياهم هذا المرض العضال ، وذلك الداء الفتاك الذي استشرى في أوساط الدعاة ؛ فلزموا بيوتهم ، وألقوا بأيديهم حرصاً على سلامة قلوبهم - كما زين لهم الشيطان الرجيم الذي لا يألو جهداً في بث الفرقة والاختلاف ، ثم هو في نفس الوقت يبث اليأس في القلوب الضعيفة التي أعيهاها السير وكثرة الاختلاف ، فيزين لهم اعتزال أي عمل إسلامي يوجد في هذه الأزمنة ، حتى يأتي الله بفتح من عنده . كل هذا بسبب الفرقة والاختلاف . وبدلاً من العمل والسعي لتغيير هذا الواقع الأليم والتحرك لجمع الكلمة ووحدة الصف ، آثروا السلامة والنجاة بنفوسهم ، وربما كانت النجاة في غير ما اختاروا .

فيا طلاب العلم المخلصين! ويا دعاة الحق المبين! ألا من رجعة صادقة إلى الله عز وجل نرتفع بها على ذواتنا وأشخاصنا وأغراضنا الدنيوية! ألا من

رجل رشيد يفكر بعمق في هذه المأساة وخطرها على الأمة الإسلامية بأسرها! وإنه إن لم نسع لرأب الصدع ، وبذل الولاء والمحبة لكل مؤمن ، فإن هناك فتنة وفساداً كبيراً سيحلان بنا ؛ إن لم يتداركنا الله برحمة من عنده ؛ يجمع بها شتات القلوب ، وتتوحد بها كلمة دعائه الصادقين ؛ يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣] .

ومما يزيد الأمر حسرة وألماً ، أن هذه الفرقة تحصل بين من ينتسبون إلى عقيدة واحدة ومنهج واحد هو عقيدة أهل السنة والجماعة ومنهجهم ، فإذا كان الجميع بهذه الصورة ، وهم يواجهون عدواً واحداً يحارب الإسلام وأهله أيّاً كان ثوبه أو اسمه ، وإذا كان الجميع يهدفون إلى غاية واحدة ؛ وهي استئناف الحياة الإسلامية ، وإقامة دين الله عز وجل وشريعته ، ومحاربة الباطل وأهله ، إذا كان الجميع متفقين على ذلك كله ، فلماذا هذه الفرقة ؟

لا شك أن للشيطان وحظوظ أنفسنا سبباً كبيراً في وجود هذه الفرقة ، وهناك سبب آخر لا يقل عن سابقه في كونه سبباً من أسباب الفرقة والاختلاف ، ألا وهو الجهل بدين الله عز وجل وأحكام شريعته - كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله .

وإن ما سبق ذكره لا يعني ألا يوجد خلاف أبداً بين الأفراد أو الجماعات ، كلا . . . فالخلاف - والله أعلم - أمر حتمي بحكم اختلاف الطبائع والمقومات الشخصية والفكرية والميول النفسية . . . إلخ ، ولكن ليس كل اختلاف

يوجب الفرقة والتنازع والتباغض ، وأوضح مثال لذلك أن السلف رحمهم الله قد اختلفوا في كثير من المسائل ، ومع ذلك كانت كلمتهم مجتمعة ولم يتفرقوا ، والكلام هنا منصب على من هم في دائرة أهل السنة والجماعة ولم يختلفوا في أصولها ؛ أما المخالفون لأهل السنة من أهل الأهواء والبدع ، فإن خلافنا معهم أصيل ومتعين ، ومثل هؤلاء ينبغي أن نفارقهم ونبرأ من بدعهم وضلالاتهم .

وإن الأمة - منذ عهد أصحاب النبي ﷺ - قد وقع بينهم اختلاف في بعض المسائل ، ولم يكن هذا الاختلاف يوجب الفرقة ، إلا عندما يدخل الشيطان أو أولياؤه من الجن والإنس ، أو يكون المفارق لا علم عنده بالأدلة ومسائل الخلاف ، وما يجوز الخلاف فيه وما لا يجوز ، وهذا أدى إلى تحول الخلاف - الذي تحتمله الشريعة ، وتسعه أقوال الصحابة رضي الله عنهم ، ومن بعدهم من سلف هذه الأمة وأئمتهم - إلى عداوة وفرقة .

وإن أهل السنة يمكن أن يقع بينهم اختلاف حول بعض المسائل التي يجوز الاختلاف فيها ، ولكن هذا لا يؤدي إلى اختلاف القلوب ، لعلمهم بأن هناك أسباباً كثيرة ترفع اللوم عن الأئمة الأعلام لعدم وصول الدليل إليهم ، أو أن الدليل وصل إليهم ولكن اختلفت الأذهان في فهم دلالاته ، أو غير ذلك من أسباب الخلاف المحتمل في الشريعة (ارجع إلى كتاب : رفع الملام لشيوخ الإسلام ابن تيمية لتفصيل هذه الأسباب) .

من أجل ذلك ، ومن أجل جوانب تربية أخرى ، تأتي هذه الوقفات القرآنية لتلمس هذه الحقائق ، ولتكون خطوة على طريق إزالة هذه الخلافات



الحادة ، لعلنا نهتدي إلى أول الطريق ، فنبصر آخره ؛ لأن من ضل أول الطريق فقد صعب عليه أن يمسك بنهايته .

أسأل الله عز وجل أن ينفع بها ، وأن تكون مثار اهتمام بهذا لمن يهمهم هذا الأمر ، وإلى أن تكون مجالاً للكتابة والبحث والحوار والعمل ، والله من وراء القصد ، والحمد لله رب العالمين .

\* \* \*



الرسالة الأولى  
وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْلَمُوا

[ الأنعام : ١٥٢ ]

عبد العزيز بن ناصر المجليل



## أهمية الموضوع

إن أهمية الموضوع تأتي من أنه مفتاح الحق ، وجامع الكلمة ، والمؤلف بين القلوب ؛ لأن من أقوى أسباب الاختلاف بين العباد : الظلم والاعتداء ، وفقدان العدل والإنصاف . ولو جاهد المسلم نفسه لتحقيق صفة العدل على نفسه ومع الناس ؛ فإن كثيراً من المشاكل التي تحصل بين المسلمين - سواء منها الفردية أو الجماعية - ستزول وتحل بإذن الله ؛ وذلك لأن سبب الانحراف عن الحق والإصرار على الأخطاء : إما الجهل وإما الظلم ؛ فالجهل علاجه العلم ، والظلم علاجه العدل والإنصاف والقسط .

ولقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كثيراً ما يرجع أسباب الفرقة والتعدي والتعصب إلى الأمرين المذكورين سابقاً ؛ فتراه يقول : « الإنسان خُلِقَ ظلوماً جهولاً ؛ فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهواه من الشر ، فيحتاج دائماً إلى علم مفصل يزول به جهله ، وعدل في محبته وبغضه ، ورضاه وغضبه ، وفعله وتركه ، وإعطائه ومنعه ، وأكله وشربه ، ونومه ويقظته .

وكل ما يقوله ويعمله يحتاج فيه إلى علم ينافي جهله ، وعدل ينافي ظلمه ؛ فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل ، وإلا كان منه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم ، وقد قال تعالى لنبيه ﷺ بعد صلح الحديبية وبيعة الرضوان : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . . . ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح : ١ ، ٢] ، فإذا كان هذه حاله

في آخر حياته أو قريباً منها، فكيف حال غيره؟!»<sup>(١)</sup> اهـ.

وقال رحمه الله: «والعدل هو الاعتدال، والاعتدال هو صلاح القلب، كما أن الظلم فساده، ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالماً لنفسه، والظلم خلاف العدل، فلم يعدل على نفسه بل ظلمها، فصلاح القلب في العدل، وفساده في الظلم، وإذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم وهو المظلوم، كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه، فمنه العمل، وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر، قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]...»<sup>(٢)</sup>، إلى أن قال في الجزء نفسه ص ٩٩:

«مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخلاط لا سبيل إليه، لكن الأمثل فالأمثل، فهكذا صحة القلب وصلاحه في العدل، ومرضه من الزيغ والظلم والإعراض، والعدل المحض في كل شيء متعذر علماً وعملاً، ولكن الأمثل فالأمثل؛ ولهذا يقال: هذا أمثل، ويقال للطريقة السلفية: الطريقة المثلى.

وقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط. وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له، ثم العدل على الناس في حقوقهم، ثم العدل على النفس» اهـ.

وهنا نرى أن شيخ الإسلام قد بين أهمية العدل، وأنه أساس النجاة في

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣٨/١٤).

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٩٨/١٠).

الدنيا والآخرة ، وقد قسّمه حسب الأهمية إلى : أعظم العدل ؛ وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، ثم العدل على الناس ، ثم العدل على النفس ، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله في ثنايا هذا البحث .

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أيضاً أهمية العدل مع الخصوم والمفارقين لأهل السنة ؛ حيث قال :

« وأهل السنة والعلم والإيمان يعلمون الحق ، ويرحمون الخلق ، ويتبعون الرسول ﷺ ولا يبتدعون ، ومن اجتهد فأخطأ خطأ يعذره فيه الرسول ﷺ عذروه . . . إلى أن قال : «والله يحب الكلام بعلم وعدل ، ويكره الكلام بجهل وظلم ، كما قال النبي ﷺ : «القضاة ثلاثة : قاضيان في النار وقاض في الجنة : رجل قضى للناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى خلافه فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة»<sup>(١)</sup> .

وقد حرم سبحانه وتعالى الكلام بلا علم مطلقاً ، وخص القول عليه بلا علم بالنهي ؛ فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] وأمر بالعدل على أعداء المسلمين ؛ فقال تعالى : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ

(١) رواه أبو داود في الأفضية (٣٥٧٣) ، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٥) .

والحديث في صحيح سنن أبي داود (٣٠٥١) .

لِلتَّقْوَى ﴿ [المائدة: ٨] ﴾<sup>(١)</sup>.

إذن مما سبق ذكره من كلام شيخ الإسلام يتبين لنا أهمية العدل في القول والعمل ، وأن الأمانة التي أبت حملها السموات والأرض والجبال وأشفقن منها ، لا يستطيع أن يحملها الإنسان إلا بأن يتغلب على صفة الجهل ، بالعلم والتفقه في دين الله عز وجل ، وبأن يتغلب على صفة الظلم ، بالعدل والإنصاف .

ومع ذلك - وكما أشار شيخ الإسلام - فلن يستطيع أن يكمل العدل كله ، ولا أن ينفك عن الجهل كله ؛ ولذلك فهو في حاجة لأن يتوب الله عليه ويغفر له تقصيره وضعفه ، وهذا هو ما يفهم من آية الأمانة في سورة الأحزاب ؛ حيث ذكر الله عز وجل لنا صنفين من الناس :

**الصنف الأول :** المؤمنون الذين بذلوا جهدهم في طلب العلم المنافي للجهل ، والعدل المنافي للظلم ، فاستحقوا من الله عز وجل ألا يؤاخذهم بما لم يستطيعوا تحقيقه من العلم والعدل .

**الصنف الثاني :** أولئك المشركون والمنافقون الذين أعرضوا عن دين الله عز وجل فلم يتعلموه ، وأعرضوا عن العدل والقسط ، فسقطوا في ظلمات الجهل والظلم ، ووقعوا في الشرك والنفاق ، فاستحقوا العذاب الأليم ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

(١) مجموع الفتاوى (٩٦/١٦).



وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣].

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من الذين أعانهم على حمل الأمانة وغفر  
لهم تقصيرهم .

\* \* \*

## تعريف العدل ومنزله في الكتاب والسنة

قال في لسان العرب : العدل : ما قام في النفوس أنه مستقيم ، وهو ضد الجور . عدل الحاكم في الحكم يعدل عدلاً ، وهو عادل من قوم عدول . . وفي أسماء الله الحسنى (العدل) وهو الذي لا يميل فيجور في الحكم . والعدل : الحكم بالحق .

وكتب عبد الملك إلى سعيد بن جبير يسأله عن العدل فأجابه : إن العدل على أربعة أنحاء : العدل في الحكم ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ [المائدة: ٤٢] ، والعدل في القول ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ، والعدل : الفدية ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ [البقرة: ١٢٣] ، والعدل في الإشراف ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١] أي يشركون .

وفلان يعدل فلاناً : أي يساويه ، وعدل الموازين والمكاييل : سواها ، وتعديل الشيء : تقويمه ، والاعتدال : توسط حال بين حالين في كم وكيف ، كقولهم : جسم معتدل بين الطول والقصر ، ماء معتدل بين الحار والبارد . . . إلخ ، والمعادلة : الشك في أمرين ، يقال : أنا في عدال في هذا الأمر ؛ أي : في شك منه أمضي عليه أم أتركه؟ . اهـ . (باختصار).

والآيات والأحاديث الواردة في ذكر العدل، والحث عليه، والتحذير

من ضده كثيرة جداً ، لكننا نقتصر على بعضها مع نقل بعض أقوال علماء التفسير حولها .

### الآيات الواردة في ذلك :

#### الآية الأولى :

يقول الله عز وجل في سورة آل عمران : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

[آل عمران : ١٨]

يعلق شيخ الإسلام على قوله تعالى : ﴿ قَانِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ فيقول :

« فإن الاستقامة والاعتدال متلازمان ، فمن كان قوله وعمله بالقسط كان مستقيماً ، ومن كان قوله وعمله مستقيماً كان قائماً بالقسط ، ولهذا أمرنا الله عز وجل أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم ؛ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وصراطهم هو العدل والميزان ليقوم الناس بالقسط ، والصراط المستقيم هو العمل بطاعته وترك معاصيه ، فالمعاصي كلها ظلم مناقض للعدل مخالف للقيام بالقسط والعدل »<sup>(١)</sup> .

ويعلق سيد قطب رحمه الله على هذه الآية في ظلال القرآن ؛ فيقول :

« وتدير الله عز وجل لهذا الكون والحياة متلبس دائماً بالقسط وهو العدل ، فلا يتحقق العدل المطلق في حياة الناس ، ولا تستقيم أمورهم استقامة أمور الكون ، التي يؤدي كل كائن معها دوره في تناسق مطلق مع دور كل كائن آخر . . لا يتحقق هذا إلا بتحكيم منهج الله الذي اختاره حياة

(١) مجموع الفتاوى (١٤/١٧٩) .

الناس ، وبينه في كتابه ، وإلا فلا عدل ، ولا قسط ، ولا استقامة ، ولا تناسق ، ولا تلاؤم بين دورة الكون ودورة الإنسان ، وهو الظلم إذن والتصادم والتشتت والصراع . . . . » .

إلى أن قال رحمه الله تعالى : في الصفحة نفسها :

« وأنه حيث حكم في حياة الناس منهج آخر من وضع البشر لازمه جهل البشر وقصور البشر ، كما لازمه الظلم والتناقض في صورة من الصور : ظلم الفرد للجماعة ، أو ظلم الجماعة للفرد ، أو ظلم طبقة لطبقة ، أو ظلم أمة لأمة أو ظلم جيل لجيل .

وعدل الله عز وجل وحده هو المبرأ من الميل لأي من هؤلاء ، وهو إله جميع العباد ، وهو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾<sup>(١)</sup> اهـ .

الآية الثانية :

قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

[النساء : ١٣٥]

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية :

« يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط ، أي العدل ، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا يصرفهم عنه صارف ، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين ،

(١) في ظلال القرآن (١/٥٥) ط . دار المعرفة اللبنانية .

يقول: ﴿ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ أي أدوها ابتغاء وجه الله ، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً ، خالية من التحريف والتبديل والكتمان ، ولهذا قال: ﴿ وَلَوْ عَلَيَّ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي : اشهد بالحق ولو عاد ضرره عليك ، وإذا سئلت عن الأمر ، فقل الحق فيه ولو عاد ضرره عليك ؛ فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه .

وقوله: ﴿ أَوْ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ أي : وإن كانت الشهادة على والديك وقربتك فلا تراعهم فيها ، بل اشهد بالحق وإن عاد الضرر عليهم ؛ فإن الحق حاكم على كل أحد .

وقوله: ﴿ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ أي : لا ترعاه لغناه ، ولا تشفق عليه لفقره ، فالله يتولاهما ، بل هو أولى بهما منك وأعلم بما فيه صلاحهما .

وقوله: ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ أي : لا يحملنكم الهوى والمعصية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشؤونكم ، بل الزموا العدل على أي حال كان ؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨] .

ومن هذا قول عبد الله بن رواحة لما بعثه الرسول ﷺ على أهل خيبر يخرص عليهم ثمارهم وزروعهم ، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم ، فقال : والله لقد جئتمكم من أحب الخلق إلي ، ولأنتم أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير ، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على ألا أعدل فيكم ، فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض <sup>(١)</sup> اهـ .

(١) تفسير ابن كثير (٢/٤١٢) ط . دار الفكر . وحادثة ابن رواحة رواها بنحوها أحمد (٣/٣٦٧) من حديث جابر ، وأبو داود في البيوع (٣٤١٠) من حديث ابن عباس .

ويعلق سيد قطب على هذه الآية نفسها بقوله :

« إنها أمانة القيام بالقسط على إطلاقه في كل حال ، وفي كل مجال ؛ القسط الذي يمنع البغي والظلم في الأرض ، والذي يكفل العدل بين الناس ، والذي يعطي كل ذي حق حقه ، من المسلمين وغير المسلمين ، وفي هذا الحق يتساوى عند الله عز وجل المؤمنون وغير المؤمنين ، ويتساوى الأقارب والأباعد ويتساوى الأعداء والأصدقاء ، والأغنياء والفقراء . .

والمنهج الرباني يجنّد النفس في وجه ذاتها ، وفي وجه عواطفها تجاه ذاتها أولاً ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ ، وتجاه الوالدين والأقربين ثانياً ، وهي محاولة شاقة أشق بكثير من نطقها باللسان . . . » إلى أن قال : «ثم هو يجنّد النفس كذلك في وجه مشاعرها الفطرية ، أو الاجتماعية حين يكون المشهود له أو عليه فقيراً ؛ تشفق النفس من شهادة الحق ضده ، وتود أن تشهد له معاونة لضعفه ، أو من يكون فقره مدعاة للشهادة ضده ، بحكم الرواسب الاجتماعية ، كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية وحين يكون المشهود له أو عليه غنياً تقتضي الأوضاع الاجتماعية مجاملته ، أو قد يثير غناه وتبطره النفس ضده فتحاول أن تشهد ضده . . . »<sup>(١)</sup> .

الآية الثالثة :

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة : ٨] .

(١) في ظلال القرآن (٢/٥٤٩) ط . دار المعرفة .

يلتق سيد قطب رحمه الله على هذه الآية بقوله :

« لقد نهى الله عز وجل الذين آمنوا من قبل ، أن يحملهم الشنآن لمن صدوهم عن المسجد الحرام على الاعتداء ، وكانت هذه قمة في ضبط النفس والسماحة ، يرفعهم الله إليها بمنهجه التربوي الرباني القويم ، فها هم أولاء ينهون أن يحملهم الشنآن على أن يميلوا عن العدل ، وهي قمة أعلى مرتقى وأصعب على النفس وأشق ، فهي مرحلة وراء عدم الاعتداء والوقوف عنده ، تتجاوزه إلى إقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض . . » إلى أن قال رحمه الله تعالى :

« إن النفس البشرية لا ترتقي هذا المرتقى قط إلا حين تتعامل في هذا الأمر مباشرة مع الله عز وجل ؛ حين تقوم لله متجردة عن كل ما عداه ، وحين تستشعر تقواه وتحس أن عينه على خفايا الضمير وذات الصدور»<sup>(١)</sup> اهـ (باختصار).

الآية الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

يلتق سيد قطب رحمه الله على هذه الآية ، فيقول :

« وهنا يرتفع الإسلام بالضمير البشري - وقد ربطه بالله ابتداءً - إلى مستوى سامق رفيع على هدى من العقيدة في الله ومراقبته . فهنا مزلة من مزلات الضعف البشري ؛ الضعف الذي يجعل شعور الفرد بالقرابة هو شعور التناصر والتكافل والامتداد ، بما أنه ضعيف ناقص محدود الأجل ،

(١) في ظلال القرآن (٢/٦٦٧) ط . دار المعرفة .

وفي قوة القرابة سند لضعفه، وفي سعة رقعتها كمال لوجوده ، وإن امتدادها جيلاً بعد جيل حماية لامتداده ، ومن ثم يجعله ضعيفاً تجاه قرابته حين يقف موقف الشهادة لهم أو عليهم أو القضاء بينهم وبين الناس .

وهنا في هذه المزمة يأخذ الإسلام بيد الضمير البشري ليقول كلمة الحق والعدل ، على هدى من الاعتصام بالله وحده ، ومراقبة الله وحده ، اكتفاء به من مناصرة ذوي القربى ، وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه ؛ وهو سبحانه أقرب إلى المرء من حبل الوريد»<sup>(١)</sup> اهـ .

**أما الأحاديث الواردة في الحث على العدل ، وتجنب الظلم والبغي فكثيرة جداً نقتصر على بعضها :**

**الحديث الأول :**

ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أنه قال : «نحلني أبي نحلًا ، فقالت أمي عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ ، فجاءه ليشهده على صدقتي ، فقال : « أكل ولدك نحلتي مثله ؟ » فقال : لا ، فقال : « اتقوا الله واعدلوا في أولادكم » ، وقال : «إني لا أشهد على جور» . قال : فرجع أبي فردتلك الصدقة»<sup>(٢)</sup> .

**الحديث الثاني :**

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل سلامي من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس ؛ يعدل بين اثنين صدقة»<sup>(٣)</sup> .

(١) في ظلال القرآن (٣/٤٢٦) ط . دار المعرفة .

(٢) رواه البخاري في الهبة (٢٥٨٧) ، ومسلم في الهبات (١٦٢٣) .

(٣) رواه البخاري في الصلح (٢٧٠٧) ، ومسلم في الزكاة (١٠٠٩) .



## الحديث الثالث :

ثبت في الصحيحين عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره ، وعلى أثرة علينا ، وعلى ألا ننازع الأمر أهله ، وعلى أن نقول الحق أينما كنا ؛ لا نخاف في الله لومة لائم» ، وزاد النسائي : «وعلى أن نقول بالعدل أين كنا»<sup>(١)</sup> .

## الحديث الرابع :

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور على يمين الرحمن - وكلتا يديه يمين - الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم وما ولوا »<sup>(٢)</sup> .

## الحديث الخامس :

روى النسائي والحاكم في مستدركه عن عمار بن ياسر رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يدعو بهذا الدعاء : « اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق والعدل في الغضب والرضى ، وأسألك القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وقرّة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ،

(١) رواه البخاري في الأحكام (٧١٩٩) ، (٧٢٠٠) ، ومسلم في الإمارة (١٧٠٩) واللفظ له ، والنسائي في البيعة على السمع والطاعة (١٣٧/٧) .

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٨٢٧) باب : فضيلة الإمام العادل .

وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين»<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

---

(١) رواه النسائي في كتاب السهو (٣/ ٥٥) . وهو في صحيح سنن النسائي (١٢٣٧) ، (١٢٣٨) .

## أقسام العدل

ينقسم العدل حسب متعلقاته إلى الأقسام التالية :

### ١ - أعظم العدل :

وهو توحيد الله عز وجل لا شريك له ؛ وهو الحق الذي قامت به السموات والأرض ، ومن أجله خلق الله الخلق ، قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان : ٣٨ ، ٣٩] .

وقال تعالى : ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأحقاف : ٣] .

ويقابل هذا القسم من العدل أعظم الظلم ؛ وهو الإشراك بالله عز وجل ، والكفر به ، حيث قال عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] ، ومثله قول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ . [الأنعام : ٨٢] ، قوله تعالى : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٤] .

### ٢ - العدل مع النفس :

ويدخل في هذا العدل قيام العبد بالأمانة التي كلفه الله عز وجل بها ، وذلك فيما بين العبد وربه ، من الالتزام بأوامره واجتناب نواهيه ، من غير إفراط ولا تفريط ، ويقابل هذا القسم من العدل ظلم العبد لنفسه بارتكابه ما

حرم الله عز وجل مما هو دون الشرك ، أو تركه ما أمر الله عز وجل مما يتعلق به نفسه ، ولا يتعدى إلى غيره .

وهذا النوع من الظلم من أخف أنواع الظلم ؛ حيث إن صاحبه قد يتوب فيتوب الله عليه ، ولو مات عنه بدون توبة فإنه تحت المشيئة ، بينما الظلم العظيم وهو الشرك بالله لو مات عليه فلن يغفر الله له ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٨] .

وهو أخف من ظلم العباد ؛ لأنه يشترط في التوبة من ظلم العباد رد الحقوق إلى أهلها واستباحتهم منها .

### ٣- العدل مع العباد :

وهذا النوع من العدل هو الذي يهمننا في هذا الحديث ، والقسمان السابقان ليس هنا موضع تفصيلهما ، ويقابل هذا القسم من العدل ظلم العباد واعتداء بعضهم على بعض ، سواء في القول أو الفعل .

وسنذكر في هذا القسم - إن شاء الله - بعض مقتضيات ولوازم هذا العدل ، مع الإشارة في أثناء ذلك إلى بعض المواقف المؤسفة ، التي تنافي العدل والإنصاف ، مع ذكر المنهج الشرعي الذي ينبغي سلوكه حيال هذه المواقف .

ويحسن بنا قبل ذكر هذه اللوازم أن نقدم لها بكلام نفيس للإمام ابن القيم رحمه الله - في مدارج السالكين - حول (منزلة الخلق) . قال رحمه الله تعالى :

« وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان ، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها :

الصبر ، العفة ، الشجاعة ، العدل .

**فالصبر:** يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ ، وكف الأذى ، والحلم والأناة ، والرفق ، وعدم الطيش والعجلة .

**والعفة:** تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل ، وتحمله على الحياء ، وهو رأس كل خير ، وتمنعه من الفحشاء ، والبخل والكذب والغيبة والنميمة .

**والشجاعة:** تحمله على عزة النفس ، وإيثار معالي الأخلاق والشيم ، وعلى البذل والندى ، الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقتها ، وتَحْمَلُهُ عَلَى كَظْمِ الْغَيْظِ وَالْحَلْمِ ؛ فَإِنَّهُ بِقُوَّةِ نَفْسِهِ وَشَجَاعَتِهَا يُمْسِكُ عَنَانَهَا ، وَيَكْبَحُهَا بِلِجَامِهَا عَنِ التَّرْغِ وَالْبَطْشِ ، كَمَا قَالَ ﷺ : « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ »<sup>(١)</sup> ، وهو حقيقة الشجاعة ؛ وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه .

**والعدل:** يحمله على اعتدال أخلاقه ، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط ؛ فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقحة ، وعلى خلق الشجاعة الذي هو التوسط بين الجبن والتهور ، وعلى خلق الحلم الذي هو التوسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس . ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة .

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة ، وبنائها على أربعة أركان : الجهل ، والظلم ، والشهوة ، والغضب .

**فالجهل:** يريه الحسن في صورة القبيح ، والقبيح في صورة الحسن ،

(١) رواه البخاري في الأدب (٦١١٤) ، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٩) .

والكمال نقصاً ، والنقص كمالاً .

والظلم : يحمله على وضع الشيء في غير موضعه ، فيغضب في موضع الرضى ، ويرضى في موضع الغضب ، ويحجم في موضع الإقدام ، ويقدم في موضع الإحجام ، ويلين في موضع الشدة ، ويشتد في موضع اللين ، ويتواضع في موضع العزة ، ويتكبر في موضع التواضع .

والشهوة : تحمله على الحرص والشح والبخل ، وعدم العفة والنهمة والجشع ، والذل والدناءات كلها .

والغضب : يحمله على الكبر والحقد والحسد ، والعدوان والسفه .

ويتركب من بين كل خلقين من هذه الأخلاق : أخلاق مذمومة .

وملاك هذه الأربعة أصلان : إفراط النفس في الضعف ، وإفراطها في القوة .

فيتولد من إفراطها في الضعف : المهانة والبخل ، والخسة واللؤم ، والذل والحرص ، والشح وسفاسف الأمور والأخلاق .

ويتولد من إفراطها في القوة : الظلم والغضب والحدة ، والفحش والطيش .

ويتولد من تزوج أحد الخلقين بالآخر أولاد غية كثيرون ، فإن النفس قد تجمع قوة وضعفاً ؛ فيكون صاحبها أجبر الناس إذا قدر ، وأذلهم إذا قُهر ، ظالم عنوف جبار ، فإذا قُهر صار أذل من امرأة ؛ جبان عن القوي ، جريء على الضعيف ؛ فالأخلاق الذميمة يولد بعضها بعضاً ، كما أن الأخلاق الحميدة يولد بعضها بعضاً .

وكل خلق محمود مكنتف بخلقين ذميمين وهو وسط بينهما ، وطرفاه  
خلقان ذميمان ، كالجود : الذي يكتنفه خلقا البخل والتبذير ، والتواضع :  
الذي يكتنفه خلقا الذل والمهانة والكبر والعلو»<sup>(١)</sup> اهـ .

\* \* \*

---

(١) مدارج السالكين (٢/٣٠٨) ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، ط . دار الكتاب العربي .

## من لوازم العدل ومقتضياته

هذا الباب هو بيت القصيد من هذا البحث ؛ لأن المقصود من إثارة هذا الموضوع ، هو التعرض للجوانب العملية التي يفرضها العدل على المسلم ، وخاصة في واقعنا المعاصر ، ومانشأ فيه من تفريط في هذه الجوانب ، ونقتصر فيها على ما يلي :

### ١- التثبت من الأمر قبل الحكم عليه :

إن من العدل والإنصاف أن يتثبت المسلم من كل خبر أو ظاهرة ، قبل الحكم عليها ، وإن من الظلم والاعتداء الحكم على أمر بمجرد الظنون والأوهام ، وقبل التثبت التام منه ، ولقد بين الله سبحانه وتعالى لنا في سورة الإسراء وفي آية واحدة المنهج الصحيح ، الذي ينبغي سلوكه في مثل هذه الأمور ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وحول تفسير هذه الآية قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى :

« قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يقول : لا تقل . وقال العوفي عنه : لا ترم أحداً بما ليس لك به علم . وقال محمد بن الحنفية : يعني : شهادة الزور . وقال قتادة : لا تقل رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم ؛ فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله . ومضمون ما ذكره : أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم ، بل بالظن الذي هو التوهم



والخيال، كما قال تعالى : ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢] «<sup>(١)</sup> اهـ .

وحول ظلال هذه الآية ، قال سيد قطب رحمه الله تعالى :

« والعقيدة الإسلامية عقيدة الوضوح والاستقامة والنصاعة ، فلا يقوم شيء فيها على الظن أو الوهم أو الشبهة : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ ، وهذه الكلمات القليلة تقيم منهجاً كاملاً للقلب والعقل ، يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثاً جداً ، ويضيف إليه استقامة القلب ومراقبة الله ، ميزة الإسلام عن المناهج العقلية الجافة .

فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها ؛ هو دعوة القرآن الكريم ، ومنهج الإسلام الدقيق ، ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة ، ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل ، ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم .

والأمانة العلمية التي يشيد بها الناس في العصر الحديث ليست سوى طرف من الأمانة العقلية القلبية التي يعلن القرآن تبعثها الكبرى ، ويجعل الإنسان مسؤولاً عن سمعه وبصره وفؤاده ، أمام واهب السمع والبصر والفؤاد .

إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب ، أمانة يسأل عنها صاحبها وتساءل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعاً ، أمانة يرتعش

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٤ ص ٣٠٧ ، ط . دار الفكر .

الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة ، وكلما روى الإنسان رواية ، وكلما أصدر حكماً على شخص أو أمر أو حادثة .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ولا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين ، ومالم تثبت من صحته : من قول يقال ورواية تروى . ومن ظاهرة تفسر أو واقعة تعلل . ومن حكم شرعي ، أو قضية اعتقادية .

وفي الحديث : « إياكم والظن فإنه أكذب الحديث »<sup>(١)</sup> ، وفي سنن أبي داود : « بئس مطية الرجل : زعموا »<sup>(٢)</sup> ، وفي الحديث الآخر : « إن أفرى الفرى أي يري الرجل عينيه ما لم تريا »<sup>(٣)</sup> .

وهكذا تتضافر الآيات والأحاديث على تقرير ذلك المنهج الكامل المتكامل الذي لا يأخذ العقل وحده بالتحرج في أحكامه والتثبت في استقرائه ؛ إنما يصل ذلك التحرج بالقلب في خواطره وتصوراته ، وفي مشاعره وأحكامه ، فلا يقول اللسان كلمة ، ولا يروي حادثة ، ولا ينقل رواية ، ولا يحكم العقل حكماً ، ولا يبرم الإنسان أمراً إلا وقد تثبت من كل جزئية ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة ، فلم يبق هنالك شك ولا شبهة في صحتها : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ حقاً وصدقاً . . .<sup>(٤)</sup> اهـ .

## ٢- العدل في النقد ومعالجة الخطأ :

هذا الجانب من جوانب العدل نحتاج إليه في كل حال من أحوالنا

- (١) رواه البخاري في النكاح (٥١٤٣) ، ومسلم في البر (٢٥٦٣) .
- (٢) رواه أبو داود في الأدب (٤٩٧٢) ، وهو في صحيح سنن أبي داود (٤١٥٨) .
- (٣) مسند أحمد (٩٢/٢) من حديث ابن عمر . وله شاهد عند البخاري في المناقب (٣٥٠٩) من حديث وائلة بن الأسقع .
- (٤) في ظلال القرآن ، (٣٢٦/٥) ط . دار المعرفة اللبنانية .

الفردية والجماعية ، وذلك في حل مشاكلنا ومعالجة أخطائنا معالجة شرعية تسيطر عليها روح المحبة والإخلاص .

ويجدر بنا أن نذكر هنا المنهج العادل والطريقة المثالية لمعالجة الخطأ ، وذلك حسبما رسمه لنا من أمرنا الله عز وجل بأن تكون لنا أسوة حسنة فيه ﷺ ، وما أكثر المواقف العادلة في سيرته ﷺ ، بل إن سيرته ﷺ كلها عدل ، ونكتفي هنا بمثال واحد ألا وهو موقفه ﷺ من صنيع حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه في فتح مكة ، ويحسن أن نذكر القصة بتمامها ؛ ليتضح لنا ذلك القسطاس المستقيم الذي انتهجه الرسول ﷺ في معالجة هذا الخطأ ، رغم شناعته وخطورته :

روى الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه ، عن علي رضي الله عنه ، قال : « بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد والزبير - وكلنا فارس - قال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب ابن أبي بلتعة إلى المشركين » ، فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ ، فقلنا : الكتاب ، فقالت : ما معي من كتاب ، فأخذناها فالتمسنا فلم نر كتاباً ، فقلنا : ما كذب رسول الله ﷺ لتخرجن الكتاب أو لنجردنك ، فلما رأنا الجذ أهوت إلى حجزتها - وهي محتجزة بكساء - فأخرجته ، فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ ، فقال عمر : يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعني فلاضرب عنقه .

فقال النبي ﷺ : « ما حملك على ما صنعت ؟ » . قال حاطب : والله ما بي ألا أكون مؤمناً بالله ورسوله ﷺ ، أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي ، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله ، فقال ﷺ : « صدق ، ولا تقولوا إلا

خيراً» . فقال عمر : إنه قد خان الله والمؤمنين ، فدعني فلاضرب عنقه ، فقال : « أليس من أهل بدر ؟ لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو فقد غفرت لكم - » ، فدمعت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم»<sup>(١)</sup> اهـ .

من هذه الحادثة نستطيع أن نحدد ثلاث مراحل للمعالجة العادلة للخطأ ،  
مهما كانت ضخامته :

### المرحلة الأولى : مرحلة التثبيت من وقوع الخطأ :

وفي هذه الحادثة قد تم التثبيت عن طريق أوثق المصادر ألا وهو الوحي ، حيث أوحى الله عز وجل إلى الرسول ﷺ بخبر الكتاب الذي أرسله حاطب مع المرأة ، وأين هي المرأة .

### المرحلة الثانية : مرحلة التثبيت من الأسباب التي دفعت إلى ارتكاب الخطأ :

وهذا الأمر متمثل في قوله ﷺ لحاطب : « ما حملك على ما صنعت ؟ » ، وهذه المرحلة مهمة ؛ لأنه قد يتبين بعد طرح هذا السؤال أن هناك عذراً شرعياً في ارتكاب الخطأ ، وتنتهي القضية عند هذا الحد ، فإذا لم تنته عند هذا الحد مثل ما ظهر في قضية حاطب ، وأن العذر الذي أبداه لرسول الله ﷺ لم يكن مقنعاً لكنه طمأن رسول الله ﷺ على صدق حاطب ، وأنه لا زال مسلماً ، نقول : إذا لم يكن العذر مقنعاً من الناحية الشرعية ، فإنه يصار إلى :

المرحلة الثالثة : وفيها يتم جمع الحسنات والأعمال الخيرة لمرتكب الخطأ وحشدها إلى جانب خطئه ، فقد ينغمر هذا الخطأ أو هذه السيئة في

(١) رواه البخاري في المغازي (٣٩٨٣) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٤) .

بحر حسناته : وهذا هو الذي سلكه الرسول ﷺ مع حاطب رضي الله عنه ؛ حيث قال ﷺ لعمر عندما استأذن في قتل حاطب : « أليس من أهل بدر ؟ » فقال : « لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو فقد غفرت لكم » .

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله كلاماً جيداً حول هذا الموضوع ؛ حيث قال في رده على من قال : إن الله يعافي الجهال ما لا يعافي العلماء : « فالجواب : أن هذا الذي ذكرتموه حق لا ريبه فيه ، ولكن من قواعد الشرع والحكمة أيضاً أن من كثرت حسناته وعظمت وكان له في الإسلام تأثير ظاهر ، فإنه يحتمل له ما لا يحتمل من غيره ، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره ؛ فإن المعصية خبث ، والماء إذا بلغ القلتين لم يحمل الخبث ؛ بخلاف الماء القليل فإنه يحمل أدنى الخبث .

ومن هذا قول النبي ﷺ لعمر : « وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » وقد ارتكب مثل ذلك الذنب العظيم ، فأخبر النبي ﷺ أنه شهد بدرأ ، فدل على أن مقتضى عقوبته قائم لكن منع من ترتيب أثره عليه ما له من المشهد العظيم ؛ فوَقَعَت تِلْكَ السَّقَطَةُ العظيمة مغتفرة في جنب ما له من الحسنات .

ولما حض النبي ﷺ على الصدقة فأخرج عثمان رضي الله عنه تلك الصدقة العظيمة ، قال : « ما ضر عثمان ما عمل بعدها »<sup>(١)</sup> ، وقال لطلحة لما تطأطأ للنبي ﷺ حتى صعد على ظهره إلى الصخرة : « أوجب طلحة »<sup>(٢)</sup> .

(١) رواه الحاكم (١٠٢/٣) ، وصححه ووافقه الذهبي ، وله شواهد أشار إليها الألباني في تخريج فقه السيرة ص ٤٠٥ .

(٢) رواه أحمد (١/١٦٥) . وهو في السلسلة الصحيحة (٩٤٥) .

وهذا موسى كلیم الرحمن عز وجل ألقى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه له ، ألقاها على الأرض حتى تكسرت ، ولطم عين ملك الموت ففقاها ، وعاتب ربه ليلة الإسراء في النبي ﷺ ، وقال : شاب بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي ، وأخذ بلحية هارون وجره إليه وهو نبي الله ، وكل هذا لم ينقص من قدره شيئاً عند ربه ، وربّه تعالى يكرمه ويحبه ، فإن الأمر الذي قام به موسى ، والعدو الذي برز له ، والصبر الذي صبره ، والأذى الذي أودى به في الله أمر لا تؤثر فيه أمثال هذه الأمور ، ولا تغير في وجهه ولا تخفى منزلته .

وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر في فطرتهم أنه من له ألوف من الحسنات ؛ فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوهما ، حتى إنه ليختلج داعي عقوبته على إساءته وداعي شكره على إحسانه ؛ فيغلب داعي الشكر داعي العقوبة ، كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيح  
وقال آخر :

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللاتي سررن كثير  
والله سبحانه يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته ، فأيهما غلب كان التأثير له ، فيفعل بأهل الحسنات - الذين آثروا محابه ومراضيه ، وغلبتهم دواعي طبعهم أحياناً - من العفو والمسامحة ما لا يفعله مع غيرهم <sup>(١)</sup> اهـ .

خلاصة ما سبق حول هذا اللازم :

أن العدل في القول والفعل ، ومعالجة الأخطاء لو سلطنا فيها ذلك

(١) مفتاح دار السعادة ، ص ١٩٢ ، ط ٢ المصرية .

المسلك النبوي السابق تفصيله لما وقع كثير من المسلمين فيما وقعوا فيه اليوم من كيل التهم ، والتشهير ، وتتبع العثرات ، والذي لا يستفيد منه إلا الشيطان وأولياؤه ، ولا يفرح الشيطان بشيء كفرحه بالفرقة والاختلاف بين المسلمين ، فقد روى الإمام مسلم - رحمه الله - في صحيحه عن جابر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن إبليس يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه ، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة ؛ فيجيء أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا ، فيقول : ما صنعت شيئاً ، قال : ثم يجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته ، قال : فيدنيه منه ويقول : نعم أنت » قال الأعمش : أراه قال : « يلتزمه »<sup>(١)</sup> .

فإذا كان فرح الشيطان بالفرقة بين الزوجين بهذه الدرجة ؛ فكيف يكون فرحه بالفرقة بين دعاة المسلمين ؟

ولو أن أحدنا إذا سمع شائعة عن مسلم أو طائفة ما فقام بالثبوت منها ، فإنه يصبح أمام أحد أمرين :

إما أن تكون الشائعة لا أصل لها ، وأنها مجرد ظنون وأوهام كاذبة ، فيقضي عليها في مهدها .

وإما أن يكون الأمر صحيحاً بعد الثبوت فيصير إلى المرحلة الأخرى ، ألا وهي البحث عن الأسباب والدوافع التي أدت إلى وجود هذا الخطأ ؛ إما من صاحب الشأن ، إن كان ذلك ممكناً ، أو سؤال من يعرفه ، أو من التمعن فيما كتبه إن كان ذلك مكتوباً . . . إلخ .

وهذا هو مراد الرسول ﷺ عندما قال لحاطب : « ما حملك على ما

(١) رواه مسلم في صفات المنافقين (٢٨١٣) ، وهو في شرح مسلم للنووي (١٧/١٥٧) ، ط . المطبعة المصرية ومكتبتها .

صنعت؟» وإذا اتضح الدافع المؤدي إلى وجود هذا الخطأ وكان مقنعاً من الناحية الشرعية فإن الأمر ينتهي عند ذلك ، وإن لم يكن مقنعاً ؛ فإنه يصار إلى المرحلة الثالثة ، ألا وهي النظر إلى حسنات هذا الشخص وبلائه وجهاده ، لعل له حسنات عظيمة ينغمر فيها هذا الخطأ ويصبح ضئيلاً ، في الوقت الذي يسعى لتعديل الخطأ والمناصحة فيه بمحبة وإخلاص وحكمة .

ولعله قد تبين لنا الآن من الحديث حول هذا اللازم المهم - من لوازم العدل - الفرق بين العدل في القول والعمل ، وأثر ذلك في النصيحة والإصلاح والائتلاف ، وبين الاعتداء في القول والعمل ، وما ينتج عنه من تشهير وفرقة واختلاف ، وذلك في وقت نحن معاشر أهل السنة والجماعة بحاجة شديدة إلى الوحدة والائتلاف ، لا إلى الفرقة والاختلاف .

### ٣- الفرح بإصابة الغير للحق والحزن على مجانبتهم له :

ولعل هذا اللازم من أصعب لوازم العدل تحقيقاً ؛ لأنه يمثل - في نظري - قمة العدل والتقوى والورع ، حيث نرى الكثير من دعاة المسلمين اليوم - فضلاً عن عامتهم - إذا رأوا غيرهم قد أخطأوا فإنهم يفرحون بذلك ، حتى يحسبونه عليهم ، بل إنك ترى البعض منهم يتتبع الكتابات والمقالات التي قالها غيرهم ، وهمهم الوحيد هو تتبع العثرات ، والفرح باصطيادها ، في الوقت الذي لو وجدوا خلاف ذلك (من إصابة غيرهم للحق) فإنهم يحزنون لهذه الإصابة ، وهذا - والعياذ بالله - هو الظلم والحقد والحسد ، والذي لا يلتقي مع العدل وحب الخير للناس .

وما أحسن الحكاية التي ذكرها ابن رجب رحمه الله حول هذا الأمر ؛

حيث قال :



« وقد استحسّن الإمام أحمد ما حكى عن حاتم الأصم أنه قيل له : أنت رجل أعجمي لا تفصح ، وما ناظرك أحد إلا قطعته ؛ فبأي شيء تغلب خصمك ؟ فقال : بثلاث : أفرح إذا أصاب خصمي ، وأحزن إذا أخطأ ، وأحفظ لساني عنه أن أقول له ما يسوءه ؛ أو معنى هذا ، فقال أحمد : ما أعقله من رجل »<sup>(١)</sup> .

#### ٤- الشهادة للمحسن بإحسانه وللمسيء بإساءته :

ومن المواقف المؤسفة التي تنافي هذا اللازم أننا نرى اليوم كثيراً من الناس يفرطون في محبتهم أو كرههم ، فإذا أحبوا شخصاً أو طائفة ما فإنهم يفرطون في هذا الحب ، ولا يعدلون فيه ؛ حيث إنهم لا يرون إلا الحسنات ويغمضون أعينهم عن الأخطاء والسيئات ويبررونها ويؤولونها ، وكأن من أحبوه لا يجوز عليه الخطأ ، وهذا غلو واعتداء في الحب ، قد يؤدي إلى الغلو في الرجال وتقديسهم ، وفرق بين التقدير والتقدیس .

وفي مقابل ذلك إذا أبغضوا شخصاً أو هيئة ما فإن هذا الكره ينسيهم كل الحسنات والإيجابيات ، أو أنهم يشككون في نوايا فاعليها ، في الوقت الذي لا يذكرون إلا الأخطاء مع التضخيم والتهويل لها ، ومعلوم ما في ذلك من ظلم واعتداء ومجانبة للعدل والإنصاف ، وما أظن أحداً من المسلمين يوافق على هذا المنهج الجائر ، لكن القناعات النظرية شيء والتزامها في الواقع شيء آخر !! .

بقي أن نعرف أن المنهج الشرعي في مثل هذه المواقف ، هو الشهادة

(١) الفرق بين النصيحة والتعبير لابن رجب ، تحقيق نجم خلف ، ص ٣٢ ، دار ابن القيم .

للمحسن أنه محسن ، ويذكر له ذلك بتجرد وإنصاف ، والشهادة للمسيء بأنه مسيء ، والنصح له في ذلك وتلمس العذر - إن كان ثمة عذر شرعي - لإساءته ( كما سبق في المنهج الشرعي لمعالجة الأخطاء ) ، والانتباه إلى أن كل بني آدم خطاء ، وكل يؤخذ من قوله ويرد ؛ إلا المعصوم عليه السلام ، وأن الاعتدال في الحب والكره من لوازم قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ... ﴾ .  
[النساء : ١٣٥]

ويا ليتنا نرجع إلى سيرة سلفنا الصالح - رضي الله عنهم - ، وكيف كانوا في مواقفهم مع المخالفين ! ، وكيف كانوا يقومون الرجال ! ، فلقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الرحمن بن شماسه ، قال : أتيت عائشة أسألها عن شيء ، فقالت : ممن أنت ؟ فقلت : رجل من أهل مصر ، فقالت : كيف صاحبكم لكم في غزاتكم هذه ؟ فقال : ما نقمنا منه شيئاً ؛ إن كان ليموت للرجل منا البعير فيعطيه البعير ، والعبد فيعطيه العبد ، ويحتاج إلى النفقة فيعطيه النفقة ، فقالت : أما إنه لا يمنعني الذي فعل في محمد بن أبي بكر أخي أن أخبرك ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في بيتي هذا : « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فرفق به » <sup>(١)</sup> .

ويعلق الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث بقوله : « وفيه أنه ينبغي أن يذكر فضل أهل العلم ، ولا يمنع منه سبب عداوة ونحوها » <sup>(٢)</sup> .

وهذا الإمام ابن كثير رحمه الله ، يقول في ترجمته لشيخ الإسلام ابن

(١) رواه مسلم في الإمامة (١٨٢٨) .

(٢) شرح مسلم للنووي (٢١٢/١٢) ط . دار الكتب العلمية .

تيمية بعد كلام طويل :

« وبالجملة كان رحمه الله من كبار العلماء ، ومن يخطئ ويصيب ، ولكن خطؤه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجي ، وخطؤه مغفور له ، كما في صحيح البخاري : « إذا اجتهد العالم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر »<sup>(١)</sup> فهو مأجور ، وقال الإمام مالك بن أنس : « كل واحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر ﷺ »<sup>(٢)</sup> اهـ .

ويقول الإمام ابن رجب رحمه الله في كتابه : (الفرق بين النصيحة والتعيير) :  
« ولهذا كان الإمام أحمد رحمه الله يذكر إسحاق بن راهويه ويمدحه ويشني عليه ، ويقول : وإن كان يخالف في أشياء ؛ فإن الناس لم يزل بعضهم يخالف بعضاً ؛ أو كما قال . وكان كثيراً ما يعرض عليه كلام إسحاق وغيره من الأئمة ومأخذهم من أقوالهم ؛ فلا يوافقهم في قولهم ، ولا ينكر عليهم أقوالهم واستدلالاتهم ، وإن لم يكن هو موافقاً على ذلك كله »<sup>(٣)</sup> اهـ .

ويذكر ابن الجوزي - رحمه الله - في كتابه (سيرة عمر) قول عمر رضي الله عنه : « ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك ، ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً ، وما كافت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه »<sup>(٤)</sup> اهـ .

(١) رواه البخاري بنحوه في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٥٢) ، ومسلم في الأفضية (١٧١٦) .

(٢) البداية والنهاية (١٤ / ١٣٩) دار المعارف .

(٣) الفرق بين النصيحة والتعيير ص ٣١ ، ٣٢ . دار ابن القيم .

(٤) خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ووصاياه ، جمع محمد أحمد عاشور ص ١٢٣ ، دار الاعتصام .

ونختم هذا اللازم من لوازم العدل ببعض آراء ومواقف شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - من مخالفه ؛ سواء في الفروع أو الأصول .

يقول رحمه الله في جوابه عن سؤال عن قوله ﷺ : « تفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة »<sup>(١)</sup> ما الفرق ؟ ، وما تعتقده كل فرقة من هذه الصنوف ؟ ؛ فقال في معرض جوابه :

« . . . وما ينبغي أيضاً أن يعرف أن الطوائف المنتسبة إلى متبوعين في أصول الدين والكلام على درجات : منهم من يكون قد خالف السنة في أصول عظيمة ، ومنهم من يكون إنما خالف السنة في أمور دقيقة ، ومن يكون قد رد على غيره من الطوائف الذين هم أبعد عن السنة منه ؛ فيكون محموداً فيما رده من الباطل وقال من الحق ، لكن يكون قد جاوز العدل في رده بحيث جحد بعض الحق ، وقال بعض الباطل ، فيكون قد رد بدعة كبيرة ببدعة أخف منها ، ورد باطلاً بباطل أخف منه .

وهذا حال أكثر أهل الكلام المنتسبين إلى السنة والجماعة ، ومثل هؤلاء إذا لم يجعلوا ما ابتدعوه قولاً يفارقون به جماعة المسلمين ، يوالون عليه ويعادون ، كان من نوع الخطأ ، والله سبحانه وتعالى يغفر للمؤمنين خطأهم في مثل ذلك ؛ ولهذا وقع في مثل هذا كثير من سلف الأمة وأئمتها ؛ بخلاف من والى موافقه وعادى مخالفه وفرق بين جماعة المسلمين ، وكفر وفسق مخالفه دون موافقه في مسائل الآراء والاجتهادات ، واستحل قتال مخالفه دون موافقه ؛ فهؤلاء من أهل التفرق والاختلافات »<sup>(٢)</sup> اهـ .

(١) رواه أبو داود في السنة (٤٥٩٦) ، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٢) ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩١) وله طرق أخرى وشواهد . انظر الصحيحة (٢٠٣) ، (١٤٩٢) .

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣/٣٤٨) .

### ٥- الابتعاد عن النجوى :

إن مما يفرضه العدل على المسلم أن يبتعد عن النجوى التي من شأنها إحزان المسلمين وإثارة العداوة والبغضاء بينهم ، وهي عامل مهم في ترويح الشائعات . يقول الله عز وجل : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [النساء : ١١٤] ، وما سوى ذلك فهو شر وتفریق بين المؤمنين .

والناس إزاء الشائعات التي تثار حول شخص أو هيئة ما ، ينقسمون حسب تعاملهم مع هذه الشائعات إلى ثلاثة أصناف :

الصنف الأول : من يقبل هذه الشائعات على علاقتها ، ويكتمها في نفسه ، ويرتب عليها أموراً ومواقف من غير تثبت ولا تبين .

الصنف الثاني : من يقوم بالتناجي بها بعيداً عن صاحب الشأن فيها ، ومعلوم ما في ذلك من الوقوع في الغيبة ، وإذكاء الشائعات وانتشارها .

الصنف الثالث : من يسارع إلى التثبت من الشائعة ممن أثيرت حوله مباشرة ، ولا يذهب مع الظنون والوساوس النفسية أو المناجاة التي تحزن المسلم .

ولو حاكمنا معاملة هذه الأصناف الثلاثة إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ لاتضح لنا أن الصنف الأول والثاني مخالفان للشرع ، وأن طريقة الصنف الثالث هي الطريقة الشرعية، التي تقوم على التثبت وحب الخير للمسلمين ورعاية حقوقهم وأعراضهم والتماس الأعذار لهم .

وهذه الطريقة هي الطريقة الشرعية في عتاب المسلم لأخيه المسلم ، إذا

وصله من أخيه ما يسوءه .

### ٦- سلامة القلب :

يقول الله- عز وجل - : ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ ، ٨٩] ، وقد ورد في تفسير ابن كثير حول هذه الآية : « أن القلب السليم هو السالم من الشرك ، وهو قول مجاهد والحسن وغيرهما ، وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن »<sup>(١)</sup> اهـ .

وعلق القرطبي في تفسيره : « عن عوف الأعرابي قال : سألت محمد ابن سيرين ما القلب السليم ؟ قال : الناصح لله عز وجل في خلقه »<sup>(٢)</sup> اهـ .

وروى البخاري في صحيحه عن جرير بن عبد الله قال : « بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم »<sup>(٣)</sup> .

وعلق ابن حجر رحمه الله بقوله : ورواه ابن حبان . . . ، وزاد فيه : «فكان جرير إذا اشترى أو باع يقول لصاحبه : اعلم أن ما أخذنا منك أحب إلينا مما أعطيناك ، فاختر »<sup>(٤)</sup> .

من ذلك يتبين أثر سلامة القلب في العدل مع الناس ، حيث إن صاحب هذا القلب مطمئن البال هادئ النفس يحب الخير للناس ، ويبذل النصح لهم ، وهذه صفات أصحاب رسول الله ﷺ الذين مدحهم الله عز وجل بقوله : ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح : ٢٩] .

(١) تفسير ابن كثير (٥/١٩١) ط . دار الفكر .

(٢) تفسير القرطبي (١٥/٩١) .

(٣) رواه البخاري في الإيمان (٥٧) .

(٤) فتح الباري (١/١٦٨) السلفية .

والانحرافات ؛ فإنه يصاحبه في ذلك شعور بالشفقة وحب الهداية للغير ، لا مجرد الرد والخصومة والجدال ، كما هو الحال في كثير ممن يتصدى اليوم للمخالفين له أو لشيخه ؛ حيث إن الأمر يصل به إلى الاعتداء في كلامه لمن يخالفه في الفروع التي يسعها الخلاف ، لا لشيء إلا لأنه خالفه أو خالف شيخه وكفى .

وخلاصة القول في ( سلامة القلب ) أنه أصل للوآزم السابقة كلها ، فبسلامة القلب ، والنصح لله عز وجل في الخلق يتم العدل في جميع الأمور السابقة ، وصاحب القلب السليم لا يؤذي المسلمين ولو آذوه ، ولا ينتقم لنفسه .

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله - في مدارج السالكين - أحد عشر مشهداً فيما يصيب المسلم من أذى الخلق وجنابتهم عليه ، نكتفي بمشهد واحد ؛ حيث قال رحمه الله :

« المشهد السادس : مشهد (السلامة وبرد القلب) ، وهذا مشهد شريف جداً لمن عرفه وذاق حلاوته ؛ وهو ألا يشغل قلبه وسره بما ناله من الأذى وطلب الوصول إلى درك ثأره ، وشفاء نفسه ، بل يفرغ قلبه من ذلك ، ويرى أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له ، وألذ وأطيب ، وأعون على مصالحه .

فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهم عنده وخير له منه ؛ فيكون بذلك مغبوناً ، والرشيد لا يرضى بذلك ، ويرى أنه من تصرفات السفهية ، فأين سلامة القلب من امتلائه بالغل والوساوس ، وإعمال الفكر في إدراك

الانتقام؟»<sup>(١)</sup> اهـ.

ولقد اطلعت على رسالة كتبها شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - إلى تلامذته بدمشق ، وفيها تبرز هذه الصفة بجلاء ، ولولا خشية الإطالة لنقلتها بتمامها ، ولكن نكتفي بمقاطع منها ، قال رحمه الله بعد السلام والأشواق إلى تلامذته :

« وتعلمون من القواعد العظيمة - التي هي من جماع الدين - تأليف القلوب ، واجتماع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣] ، ويقول : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥] ، وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والاتلاف . وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة ، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة . . . » إلى أن قال في الرسالة نفسها :

« وأول ما أبدأ به من هذا الأصل : ما يتعلق بي ، فتعلمون رضي الله عنكم جميعاً أنني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين - فضلاً عن أصحابنا - بشيء أصلاً ، لا باطنا ، ولا ظاهراً ، ولا عندي عتب على أحد منهم ، ولا لوم أصلاً ، بل لهم عندي من الكرامة والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف أضعاف ما كان ، كل بحسبه .

ولا يخلو الرجل إما أن يكون مجتهداً مصيباً ، أو مخطئاً ، أو مذنباً ، فالأول : مشكور ، والثاني : أجره على الاجتهاد ؛ فمعفو عنه مغفور له ،

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٢٠) ، تحقيق : محمد حامد الفقي - دار الكتاب العربي .



والثالث : يغفر الله لنا وله ولسائر المؤمنين ، فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل كقول القائل : فلان كان سبب هذه القضية ، فإنني لا أسامح من آذاهم من هذا الباب ولا حول ولا قوة إلا بالله ، بل مثل هذا يعود على قائله بالملام ، إلا أن يكون له من حسنة ، وممن يغفر الله له إن شاء ، وقد عفا الله عما سلف . . . » إلى أن قال رحمه الله في الرسالة نفسها :

« فلا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه علي ، أو ظلمه وعدوانه ، فإنني قد أحللت كل مسلم ، وأنا أحب الخير لكل المسلمين ، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسه ، والذين كذبوا وظلموا منهم في حل من جهتي »<sup>(١)</sup> اهـ .

#### ٧- الصدق والوضوح :

إن هذا اللازم يعتبر أيضاً سبباً من أسباب حصول العدل ؛ فهو نتيجة وسبب في نفس الوقت ؛ لأن الصدق يؤدي إلى العدل ، والعدل يستلزم الصدق والوضوح في الأقوال والأفعال ، وأردت من إيراد هذا اللازم الإشارة إلى ما يقع في زماننا هذا من الأساليب الغامضة في تعامل المسلمين بعضهم مع بعض ، وعدم الوضوح في المقاصد والوسائل ، وهذا كله يؤدي - شئنا أم أبينا - إلى مجانبة الصدق والوقوع في الكذب الصريح .

وهذا الغموض وعدم الوضوح وسوء الظن بالمسلمين ، من الأمراض الخطيرة التي تؤدي إلى إذكاء العداوة والفرقة بين المسلمين ، وعدم اطمئنان بعضهم إلى بعض ، في الوقت الذي يفترض الصدق في المسلم ، وألا يساء الظن به ، أو أن مراده من كلامه كذا وكذا . . . إلخ .

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/٥١-٥٧).

ولقد مرت بنا الطريقة التي عالج بها الرسول ﷺ خطأ حاطب رضي الله عنه ، وكيف أنه ﷺ عندما سمع من حاطب عذره ، قال : « صدق ، لا تقولوا إلا خيراً » ، ولم يذهب إلى سوء الظن به ، واتهامه بالكذب ، أو اللف والدوران كما يقولون .

إن الصدق منجاة وخير كله في الدنيا والآخرة ، والصدق في الحديث أمر لازم لا طمئنان القلوب بعضها إلى بعض ، وطريق إلى التآلف وحصول البركة ؛ فلقد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن حكيم بن حزام رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، أو قال : حتى يتفرقا ؛ فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما »<sup>(١)</sup> .

فإن كان الصدق سبباً لحصول البركة للمتبايعين على سلعة ، والكذب والكتمان يحق بركة بيعهما ، أقول : إذا كان الأمر كذلك في أمر من أمور الدنيا ؛ فكيف يكون الحال إذا كان الصدق أو الكذب على أمر من أمور الآخرة ؟ ، لأن الدعوة عبادة يراد بها الدار الآخرة ؛ فلأن يصدق هذا الحديث على ذلك من باب أولى ، والتجربة أكبر شاهد ؛ حيث إن الصدق والوضوح بين أصحاب الدعوة وحسن الظن فيما بينهم ينتج عنه نتائج طيبة ، وبارك الله عز وجل في جهودهم وتعاونهم ، والعكس بالعكس ؛ فإن الكذب والأساليب الملتوية لم ينتج عنهما إلا الفرقة وسوء الظن وتشتيت الشمل .

وهنا يجب إيضاح أن لا تعارض بين وجود الصدق والوضوح وبين

(١) رواه البخاري في البيوع (٢١١٠) ، ومسلم في المساقاة رقم (١٦٠٧) .

الكتمان؛ فإن كان المرء ولا بد متحدثاً فليكن صادقاً وواضحاً وإلا فليصمت .

ثم إننا نقصد بكل ما سبق أهمية هذا اللازم بين المسلمين بعضهم مع بعض ، أما الكافرون والمنافقون ؛ فإن التعامل معهم يجب أن يكون بحذر ، وتقدير ما ينبغي أن يقال ، وألا يطلعوا على أسرار المسلمين بحجة الصدق .

\* \* \*

## الخاتمة

ولعلنا في هذه الخاتمة نجمل ما تم تفصيله في ثنايا هذا البحث ؛ حيث طرحت فيه النقاط التالية :

- ١ - إن الإنسان في طبيعته كان ظلوماً جهولاً .
- ٢ - إن الأمانة العظيمة التي أشفقت من حملها السموات والأرض لن يستطيع أن يحلمها الإنسان إلا بالعلم والعدل .
- ٣ - إن العدل كلمة يراد بها التوسط في الأمور ، وذلك بين الإفراط والتفريط ، فالجافي والغالي كلاهما قد جانب العدل .
- ٤ - للعدل صور كثيرة مردها إلى ثلاثة أقسام : العدل الأعظم وهو توحيد الله عز وجل ، والعدل مع النفس ، والعدل مع العباد .
- ٥ - كان التركيز في هذا البحث على العدل مع العباد ؛ وذلك للحاجة الماسة إليه ، وخاصة في هذا العصر الذي بغى بعض الناس فيه على بعض .
- ٦ - للعدل مقتضيات ولوازم كثيرة لا يمكن استيعابها في مثل هذا البحث ، وقد ركزت على أهمها ، وخاصة فيما يتعلق بالتعامل مع الناس من إقالة العثرات ، وإحسان الظن ، وقطع الطريق على الشيطان الذي يسعى إلى إيجاد الإحن والأحقاد والظلم بين المسلمين .
- ٧ - إن سبب الاختلاف والتفرق بين المسلمين يرجع إلى أمرين مهمين :

- أ - الجهل الناشئ من فقدان أو قلة العلم بدين الله ، والذي يؤدي بدوره إلى الأخذ بالباطل محسوباً أنه هو الحق .
- ب - الظلم الناشئ من الهوى وعدم العدل والإنصاف ، ومثل هذا قد يعلم صاحبه أن الحق مع مخالفه ، ولكن التعصب والهوى ومجانبة العدل يجعله يصر على الباطل ، ولو علم أنه باطل .
- ٨ - إن رفع الجهل عن النفس يتم بتعلم دين الله عز وجل وحدوده ، كما بلغها الرسول ﷺ لأصحابه وسار عليها سلف الأمة من التابعين وتابعيهم من أئمة هذا الدين وأعلامه .
- أما رفع الظلم والتحلي بالعدل والإنصاف ؛ فإنه لا يتم بالتعلم فقط ، فقد يعلم الإنسان الوسائل ولا يعمل بها .
- وللعدل مفاتيح وعلامات وتباشير أجملها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله :
- « وإن للعدل أمارات وتباشير ؛ فأما الأمارات : فالحياء ، والسخاء ، والهين ، واللين . وأما التباشير : فالرحمة ، وقد جعل الله لكل أمر باباً ، ويسر لكل باب مفتاحاً ؛ فباب العدل الاعتبار ، ومفتاحه الزهد ، والاعتبار : ذكر الموت بتذكر الأموات ، والاستعداد له بتقديم الأعمال ، والزهد : أخذ الحق من كل أحد قبله حق ، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق ، ولا تصانع في ذلك أحداً »<sup>(١)</sup> اهـ .

(١) خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ووصاياه ، جمع : د . محمد أحمد عاشور ، ص ٦٢ ، دار الاعتصام .

وخلاصة القول في مفتاح العدل أنه تقوى الله عز وجل ، والتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود؛ حيث يقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨] ، حيث إنه لا مفتاح للعدل إلا بالتقوى ، والتقوى فقط .

وتبقى كلمة أخيرة في هذه الخاتمة أنصح بها نفسي وإخواني الدعاة من أهل السنة ، بأن نتقي الله عز وجل ، ونصلح ذات بيننا ، وأن نلزم أنفسنا بالعدل في أقوالنا وأعمالنا ، وأن نحذر من نزغات الشيطان ، فكما أسلفت في ثنايا البحث إن أعظم فرحة للشيطان يوم أن يفرق بين المسلمين ، ويخالف بين كلمتهم ، فهو ما يفتأ يسعى للتحريش بالمسلمين ، كما جاء في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان قد أيس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم »<sup>(١)</sup> .

وإن الواجبات الملقاة على أهل السنة اليوم أكبر وأضخم مما تستطيعه طائفة واحدة من طوائف أهل السنة ، فإن لم يسع المصلحون والمتقون من أهل السنة لجمع الكلمة وتأليف القلوب ؛ فإن فساداً كبيراً لا شك نازل ؛ كما قال عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣] ؛ أي إلا يوالى المسلمون ويعادى الكافرون تكن فتنة للناس<sup>(٢)</sup> .

(١) رواه مسلم في صفات المنافقين (٢٨١٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/٣٥٤) ، ط . دار الفكر .

أسأل الله عز وجل أن يجمع دعاة الإسلام على الحق ، وأن يؤلف بين قلوبهم ويسدد آراءهم ، وأن ينصرهم على أعدائهم ، إنه سميع مجيب ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

\* \* \*





الرسالة الثانية

قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَحْيِكَ

[ سبأ : ٤٦ ]

عبد الغفر بن سافر المجليل



## مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ،  
ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ،  
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده  
ورسوله ﷺ وعلى آله وصحبه تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فقد أنزل الله تبارك وتعالى القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، وقد  
ضمن في هذا الكتاب الهدى والشفاء ، لأوليائه المؤمنين خاصة وللناس  
عامة ، موعظة وإنذاراً ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّنْ  
رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ  
وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٧ ، ٥٨] .

ففي هذه الآية يبين الله عز وجل أن هذا القرآن العظيم ؛ جاء موعظة  
للناس كافة ، وشفاء لصدور المؤمنين ، ورحمة لهم بصفة خاصة .

فالْمُؤْمِنُونَ وحدهم هم الذين ينتفعون بمواعظ القرآن ، ومن سواهم فهو  
عليهم عمى ؛ كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا  
يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : ٤٤] .

ومن بين مواعظ القرآن العظيمة ما ذكره سبحانه وتعالى في سورة سبأ ،  
عن محاجة المشركين الذي كذبوا رسول الله ﷺ ، ورموه بالسحر تارة وبالجنون

تارة أخرى : قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُ بَوَاحِدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْنِي وَفَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦].

وهذه الآية وإن كانت موجهة إلى المشركين الذين رموا الرسول ﷺ بما هو منه براء إما لجهل أو لهوى ، فإنها تخاطب جميع المشركين في كل زمان ومكان ، بل جميع المختلفين في قضايا هذا الدين : أصوله وفروعه ، وترسم منهجاً لحل خلافاتهم ، وتضع أصولاً لحواراتهم ، وتخط لهم صراطاً مستقيماً من وحي كتاب الله العظيم ، والذي من سار عليه واتبعه وصل إلى الحق والهدى ، ومن تنكبه واتبع هواه ضل طريقه ، وإن واصل السعي بالليل والنهار .

\* \* \*

## تفسير الآية

قبل ذكر أقوال بعض المفسرين حول هذه الآية نذكر ما قبلها من الآيات حتى يتضح المقصود . يقول الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كِتَابٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَواحدة أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفِرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٣ - ٤٦] .

من هذه الآيات البيّنات يتضح لنا أن هذه الموعظة الموجهة إلى مشركي قريش كانت بسبب اتهامهم لرسول الله ﷺ بالكذب تارة ، وبالسحرة تارة أخرى ، دون تفكير أو تدبر ، شأنهم في ذلك شأن الذين يتبعون أهواءهم ، ويقتفون آثار آبائهم ومتبوعيههم دون دليل .

وقد أقام الله عز وجل هذه الموعظة العظيمة التي من أخذها بجميع مقوماتها فلا بد أن يصل إلى الحق ؛ وهي في الآية : كون النبي ﷺ رسولا من عند الله عز وجل ، ونذير ألهم بين يدي عذاب شديد ، وليس كما يزعمون ويرددون دون وعي أو نظر بأنه ساحر أو كاذب أو مجنون ﴿ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦] .

ولكي يحصل الانتفاع بهذه الموعظة العظيمة فلا بد من الأخذ بجميع المقومات التي قامت عليها هذه الموعظة ، وهي :

- \* القيام لله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ ، والتجرد في طلب الحق .
- \* مراجعة النفس والخلوة بها أو مع شخص ثانٍ : ﴿ مَثْنَى وَفِرَادَى ﴾ .
- \* التفكير فيما يقوله المخالف : ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ .

وتظهر أهمية هذه المقومات في كلام علماء التفسير رحمهم الله تعالى .

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في (فتح القدير) حول قوله تعالى :  
﴿ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾ :

« أي أحذركم بواحدة، وأنذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه، وأوصيكم بخصلة واحدة؛ وهي : ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفِرَادَى ﴾ . وهذا تفسير للخصلة الواحدة أو بدل منها ، أي هي : قيامكم وتشميركم في طلب الحق بالفكرة الصادقة متفرقين ؛ اثنين اثنين ، وواحدًا واحدًا ؛ لأن الاجتماع يشوش الفكر .

وليس المراد القيام على الرجلين بل المراد القيام لطلب الحق وإصداق الفكر فيه ؛ ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ في أمر النبي ﷺ ، وما جاء به من الكتاب ، فإنكم عند ذلك تعلمون أن ﴿ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ ؛ وذلك لأنهم كانوا يقولون : إن محمداً مجنون .

فقال لهم : اعتبروا أمري بواحدة ؛ وهي أن تقوموا لله وفي ذاته مجتمعين ومتفرقين ، فيقول الرجل لصاحبه : هلم فلنصدق ، هل رأينا بهذا الرجل من جنة - أي جنون - أو جربنا عليه كذباً ؟ .

ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه ، وليتفكر ولينظر ؛ فإن في ذلك ما يدل على أن محمداً ﷺ صادق ، وأنه رسول من عند الله عز وجل ، وأنه ليس بكاذب ولا ساحر ولا مجنون»<sup>(١)</sup> اهـ .

وقال النسفي رحمه الله في تفسيره : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾ أي بخصلة واحدة وقد فسرهما بقوله : ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ ... ﴾ الآية ، على أنه عطف بيان لها . وقيل : في محل الرفع ، والمعنى : إنما أعظمكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم ؛ وهي أن ﴿ تَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ أي لوجه الله خالصة ، لا لحمية ، ولا لعصية ، بل لطلب الحق ﴿ مَثْنَى ﴾ اثنين اثنين ، ﴿ وَفُرَادَى ﴾ فرداً فرداً ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ في أمر محمد ، وما جاء به .

أما الاثنان فيتفكران ؛ يعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران نظرة الصدق والإنصاف حتى يؤدي النظر الصحيح إلى الحق ، وكذلك الفرد يتفكر مع نفسه بعدل وإنصاف ويعرض فكره على عقله .

ومعنى تفرقهم مثنى وفرادى أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ، ويعمي البصائر ، ويمنع الروية ، ويقل الإنصاف فيه ، ويكثر الاعتساف ، ويشور عجاج التعصب ، ولا يسمع إلا نصرة المذهب»<sup>(٢)</sup> اهـ .

وقال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في ( تفسير الكريم المنان ) في تفسيره لهذه الآية :

« أي أعظمكم بخصلة واحدة أشير عليكم بها وأنصح لكم في سلوكها ، وهي طريق نصف ، لست أدعوكم إلى اتباع قولي ولا إلى ترك قولكم من

(١) فتح القدير ، عند الآية ٤٦ من سورة سبأ .

(٢) تفسير النسفي ، عند الآية ٤٦ من سورة سبأ .

دون موجب لذلك؛ وهي ﴿ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ وَفَرَادَىٰ ﴾ أي تنهضوا بهمة ونشاط وقصد لاتباع الصواب وإخلاص لله عز وجل ، مجتمعين ومتباحثين في ذلك ومتناظرين ، وفرادى كل واحد يخاطب نفسه بذلك ، فإذا قمتم لله مثنى وفرادى واستعملتم فكركم ، وأجَلْتُمُوهُ ، وتدبرتم أحوال رسولكم ، هل هو مجنون فيه صفات المجانين؛ من كلامه ، وهيته ووصفه ، أم هو نبي صادق منذر لكم ؟

فلو قبلوا هذه الموعدة واستعملوها لتبين لهم أكثر من غيرهم أن رسول الله ﷺ ليس بمجنون ؛ لأن هيته ليست كهيئة المجانين وخنقهم واختلاجهم . . فكل من رأى أحواله وقصده استعلام هل هو رسول الله أم لا؟ سواء تفكر وحده أو مع غيره ؛ جزم بأنه رسول الله حقاً وتبين صدقه «<sup>(١)</sup> اهـ .

وقال سيد قطب - رحمه الله تعالى - حول ظلال هذه الآية :

« وهنا يدعوهم دعوة خالصة إلى منهج البحث عن الحق ، ومعرفة الافتراء من الصدق ، وتقدير الواقع الذي يواجهونه من غير زيف ولا دَخَل : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ وَفَرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ ، إنها دعوة إلى القيام لله عز وجل بعيداً عن الهوى ، بعيداً عن المصلحة ، بعيداً عن ملابسات الأرض ، بعيداً عن الهواتف والدوافع التي تشتجر في القلب ، فتبعد به عن الله ، بعيداً عن التأثير بالتيارات السائدة في البيئة والمؤثرات الشائعة في الجماعة .

دعوة إلى التعامل مع الواقع البسيط لا مع القضايا والدعاوي الرائجة ولا مع العبارات المطاوعة التي تبعد القلب والعقل عن مواجهة الحقيقة في

(١) تفسير الكريم المنان ، عند الآية ٤٦ من سورة سبأ .



بساطتها ، دعوة إلى منطق الفطرة الهادئ الصافي بعيداً عن الضجيج ، والخلط ، واللبس ، والرؤية المضطربة ، والغبش الذي يحجب صفاء الحقيقة ، وهي في الوقت ذاته منهج في البحث عن الحقيقة ، منهج بسيط يعتمد على التجرد من الرواسب والغواشي والمؤثرات ، وعلى مراقبة الله عز وجل وتقواه .

وهي ﴿ وَاحِدَةٌ ﴾ إن تحققت صح المنهج واستقام الطريق : القيام لله ، لا لغرض ، ولا لهوى ، ولا لمصلحة ، ولا لنتيجة ، التجرد ، الخلوص ، ثم التفكير والتدبر بلا مؤثر خارج عن الواقع الذي يواجهه القائمون لله المتجردون .

﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى قُرْأَيْنِ ﴾ مثنى ليراجع أحدهما الآخر ، ويأخذ معه ويعطي في غير تأثر بعقلية الجماهير التي تتبع الانفعال الطارئ ، ولا تتلبث لتتبع الحججة في هدوء ، وفرادى مع النفس وجهاً لوجه في تمحيص هادئ عميق .

﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جَنَّةٍ ﴾ فما عرفتم عنه إلا العقل والتدبر والرزانة ، وما يقول شيئاً يدعو إلى التظن بعقله ورشده ، إن هو إلا القول المحكم القوي المبين<sup>(١)</sup> اهـ .

وبعد هذه النقولات من بعض كتب التفسير حول هذه الآية نستطيع الآن توضيح مقومات هذه الموعظة العظيمة وشروط الانتفاع بها بما يلي :

### الشرط الأول : ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ :

إن هذا الشرط هو الأساس لكل عمل ، وبدونه يفسد العمل ، ولا يوفق فيه صاحبه ، ولا يبارك له فيه ، فالقيام لله عز وجل هو المنطلق لصحة العمل إذا اقترن ذلك بالمتابعة فيه للرسول ﷺ .

(١) في ظلال القرآن ، عند الآية ٤٦ من سورة سبأ .

فالإخلاص في البحث عن الحق ، والصدق في طلبه ، شرط أساسي للوصول إلى ذلك الحق ، وعندما يغيب الإخلاص ينعدم الانقياد إلى الحق ، حتى ولو كان مثل فلق الصبح ؛ لأن من تعلق قصده بغير وجه ربه عز وجل ثقل عليه الانقياد للحق ، وقصرت همته عن بلوغه والعمل به .

فوجب على من أراد معرفة وجه الحق في أي أمر أن يخلص قصده ونيته لله عز وجل ، وأن يتجرد لاتباع الحق عند ظهوره ، ولو على لسان مخالفه ، وأن يعلم أن الرجوع إلى الحق خير من التماذي في الباطل .

ولكن قد يكتنف القائم لله عز وجل بعض الملابس والظروف التي قد تغطي الحق أو تلبسه بالباطل ، فيقبل به ظاناً أنه الحق ، وذلك بسبب بعض الظروف المحيطة به ، لذلك فإنه لا مناص من توفر باقي الشروط للانتفاع بموعظة الله عز وجل ومنهجه السوي في الوصول إلى الحق المنشود ، وذلك من :

### الشرط الثاني : ﴿ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ :

والالتزام بهذا الشرط يقضي على عامل مهم من العوامل التي تغطي الحق أو تشوه وجهه ، وذلك في مثل الأجواء الجماعية والجماهير الجاهلة ، والتي غالباً ما تتصف بالغوغائية والتقليد الأعمى ، واتباع كل ناعق من رؤوس الضلال ، مما قد يؤدي بطالب الحق المخلص إلى اتباع الأكثرية من الناس متهماً نفسه ، ظاناً أن الحق مع الأكثرية ، دون أن يدري أن هذه الحركة الغوغائية قد غطت الحق ، وضيعت معاملة ، فاشتبه مع غيره ، خاصة عند من قلت بصيرته ، وقل نصيبه من هدى الله عز وجل ، وهدي رسوله ﷺ وهذا ما حدث من اتهام قريش للرسول ﷺ بشكل جماهيري غوغائي ،

(١) في ظلال القرآن ، عند الآية ٤٦ من سورة سبأ .

وقولهم ساحر وكاهن ومجنون . . . إلخ .

فوعظهم الله عز وجل أن يقوموا لله ويخلصوا وجوههم له ، ويتعدوا عن هذه الأجواء ، ويرجعوا إلى أنفسهم ، حيث يقف الإنسان مع نفسه أو مع صاحبه ، ويصحب ذلك التفكير العميق والتدبر لحال الرسول ﷺ ، فلا بد أن يصلوا إلى الحق والهدى ، وهو ما جاء في ختام الآية ﴿ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ : ٤٦] .

ونخرج من هذه الآية بفائدة سيأتي تفصيلها في ثنايا البحث إن شاء الله ، وهي أن القاصد للحق أو الباحث في مسألة خلافة - كبيرة أو صغيرة - عليه أن يتجنب المناظرة في جو جماعي ، لأن المناظر يكون أقرب إلى ترك رأيه إذا تبين أن الحق في خلافه إذا كان التفكير مع شخص واحد ، بخلاف حال الجماعة ، فقد يعز عليه الاعتراف بالخطأ أمام مؤيديه أو مخالفه المجتمعين حوله ، والله تعالى عليم بمسارب نفوس خلقه ، خبير بطبائعهم ، فلذلك وعظهم موعظة من يعلم حالهم ، ويعلم ما يصلحهم ويهديهم إلى صراطه المستقيم ، ومنهجه القويم ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] .

### الشرط الثالث : ﴿ ثُمَّ تَفَكَّرُوا ﴾ :

وهذا الشرط هو الوسيلة الأساسية للوصول إلى الحق بعد الالتزام بالشرطين السابقين ؛ فالتفكير ، والعلم ، وإعمال الرأي هو المتمم لهذا المنهج الإلهي للوصول إلى الحق وتبيين الهدى من الضلال .

وهذا الشرط يقودنا إلى قضية هامة ؛ ألا وهي قضية العلم الشرعي ، ومعرفة دين الله عز وجل ، وإقامة الدليل والبرهان على ما يعتقد أنه الحق ،

وإذا كان الكفار الذين خوطبوا مباشرة بهذه الآية ، ووجهت إليهم هذه الموعدة العظيمة ما كان عندهم علم شرعي ، وليس عندهم الدليل فيما يعتقدونه ، فلذلك كان المطلوب منهم التفكير بحال الرسول ﷺ ، وإقامة الدليل على ما يتهمونه به .

فإذا كان الأمر بالتفكير مع الكفار بهذه الصورة ؛ فإن الأمر بالنسبة لطالب الحق في المسائل الشرعية والعقائدية والفكرية أكد ؛ حيث لا بد أن يكون مؤهلاً من الناحية العلمية لبحث هذه المسألة ، ودراسة أوجه الخلاف حولها ، وإلا لم يكن للتفكير فائدة ، كمن يحارب بغير سلاح ولا عدة ، وقد كان عند كفار مكة من العلم بأحوال الرسول ﷺ وصفاته ، وصدقه ، وأمانته ما يكفي ، ولو أنهم فكروا في ذلك لقادهم ذلك إلى الإذعان والانقياد للحق الذي جاءهم به الرسول ﷺ .

وكذلك الحال لكل المختلفين أو المتناظرين إذا لم يكن لديهم علم بما يختلفون فيه ؛ فإنه لا فائدة من التفكير ؛ لأن أداة التفكير الأساسية هي العلم بحال القضية المختلف فيها .

فالمقصود إذن بالتفكير هنا هو البحث عن الأدلة الشرعية والتحقق من ثبوتها ودلالاتها على المراد ، كما يدخل في العلم أيضاً العلم بحال القضية المختلف حولها وملابساتها . . . إلخ .

فالجاهل بذلك كله لا يستطيع الوصول إلى الحق لفقده الأدوات الموصلة إليه ، فلذلك نجد أمثال هؤلاء يوجههم التقليد الأعمى دون فكر أو نظر .

وإذا كان الله عز وجل قد بين لنا في كتابه الكريم منهج الوصول إلى الحق

فيما اختلف فيه ، فإن هذا المنهج وذلك الطريق السوي يمر أحياناً عبر أنواع من الحوار والمناظرة لا بد منها .

فالمتبع لمنهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدعوة إلى الله وحده ، يجد أن أكثرهم قد وقف مع قومه موقف المناظرة وإقامة الحجة والنصح ، وتبيين الحق من الباطل ، والصبر على ذلك ، مع شدة رفضهم للحق وعنادهم وتعنتهم ، ولكن مهمة البلاغ والدعوة إلى الله عز وجل تستلزم شيئاً من ضبط النفس والتحمل حتى يتم البلاغ على أكمل وجه .

ولكثرة الخلاف الواقع بين طوائف المسلمين اليوم ، وخاصة بين الطوائف من أهل السنة ؛ فإننا نقدم هذه الكلمات التي نحسب أن فيها إشارة إلى الطريقة المثلى في الحوار والمناظرة المؤدية بإذن الله عز وجل إلى الاجتماع والاتلاف في حدود منهج السلف وأصول الشريعة .

وقد اتضح من الآية السابقة التي هي موضع البحث أصول للحوار نظرناها بهذه المناسبة ، ونضيف عليها ما وقع عليه الفكر والنظر من آداب الخلاف . وقبل ذكر هذه الأصول يحسن التقدم لها بأهمية هذا الموضوع ، وبعض التعريفات والوقفات السريعة .

\* \* \*

## أهمية هذا الموضوع

إن الإمام بأداب الحوار والاختلاف أمر مهم ينفع صاحبه في حياته كلها، وبخاصة الداعية إلى الله عز وجل ، وهذه الجوانب المفيدة كثيرة نقتصر منها على ما يلي :

١ - من المعلوم أن مهمة الداعية إلى الله عز وجل هي بذل الأسباب في هداية الناس ودلالتهم إلى الخير ، ولا بد أن يواجهه في ذلك التواءات النفوس وخلافهم معه في الرأي ، فإذا لم يكن لديه من الإمام بأداب الحوار والاختلاف الشيء الكافي ، لكي يصبر ويستمر في دعوته ، فقد ينفر الناس منه ، وهو يسعى لجمعهم وهدايتهم إلى الصراط المستقيم .

٢ - إن أهمية الإمام بأداب الحوار والاختلاف، ترجع للظروف الملحة في هذا العصر الذي يعد عصر تعدد الجماعات الإسلامية والفرقة الموجودة بينهم ؛ وذلك لأن الإمام بذلك يساعد في تقارب القلوب وتفهم الأفكار؛ مما يكون له الأثر في تضييق هوة الخلاف والتماس العذر للعاملين في الدعوة الإسلامية ، وهذا يؤدي إلى الوحدة المنشودة .

٣ - كما يفيد تفهم هذه الآداب أيضاً في معالجة وجهات النظر المختلفة التي تكون بين أفراد المجموعة الواحدة ، بل أفراد العائلة الواحدة ؛ لأن فقد هذه الآداب يضخم المشاكل ، ويجعل من الحبة قبة كما يقولون .

## الفرق بين الجدل والحوار

الجدال : مصدر جادل وهو المناقشة على سبيل المخاصمة ، ومقابلة الحجة بالحجة .

والحوار : الجواب . حاوره محاورة وحواراً: جاوبه وراجعه ، فهو مراجعة في الكلام بين طرفين أو أكثر دون ما يدل بالضرورة على وجود خصومة بينهما .

وقد يكون الجدل والحوار بمعنى واحد إذا خلا الجدل من العناد والتعنت للرأي ، كما ذكر تعالى في سورة المجادلة : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ .

[المجادلة: ١]

فسمى الله سبحانه وتعالى مجادلة المرأة للرسول ﷺ ومجاوبته لها محاورة ، والله أعلم .

وعلى أية حال ؛ فالحوار كلمة غالباً ما تستعمل في المناظرة الهادئة التي يسود عليها الألفة والبحث عن الحق ، والجدال غالباً ما يكون جَوْهَ صاخباً ، وقد ينشأ عنه خصومة وعناد .

ما هي نتيجة الحوار :

ليس شرطاً للحوار الناجح أن ينتهي أحد الطرفين إلى قول الطرف الآخر، ويتفقان على موقف واحد ، فهذا نجاح لا شك فيه ، وإنما يعتبر

الحوار ناجحاً أيضاً إذا توصل الطرفان إلى أن كل قول يقوله أحدهما هو صحيح ، أو في الإطار الذي يسعه الخلاف ، أما فشل الحوار فيكون عندما يتشبث كل طرف برأيه ويضلل الآخر ويفارقه .

\* \* \*



## بعض الآيات والأحاديث الواردة في آداب الحوار وحسن المناظرة

قال تعالى :

- ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣].
- ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

[الإسراء: ٥٣]

- ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣].
- ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ [القصص: ٥٥].
- ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٦].
- ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].
- ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [النساء: ١١٤].
- ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه: ٤٤].

والآيات في ذلك كثيرة .

أما الأحاديث النبوية ، فمنها :

- « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » <sup>(١)</sup> .

(١) متفق عليه .

- « الكلمة الطيبة صدقة »<sup>(١)</sup>
  - « تبسمك في وجه أخيك صدقة »<sup>(٢)</sup>
  - « وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم »<sup>(٣)</sup> .
  - « الكبر بطر الحق وغمط الناس »<sup>(٤)</sup> .
  - « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا »<sup>(٥)</sup> .
  - « ليس الشديد بالصرعة ، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »<sup>(٦)</sup> .
  - « إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ، وما لا يعطي على ما سواه »<sup>(٧)</sup> .
- والأحاديث في ذلك كثيرة .

والآن وبعد هذه التعريفات والآيات والأحاديث التي تشير إلى الآداب الإسلامية في المعاملة مع الناس ومحاورتهم ، نأتي لتفصيل أصول الحوار في ضوء الآية الكريمة التي كانت منطلق هذا البحث ، وهي قوله تعالى :

- 
- (١) متفق عليه .
  - (٢) رواه الترمذي في البر والصلة (١٩٥٦) ، والحديث في صحيح سنن الترمذي (١٦٠٢) .
  - (٣) رواه الترمذي في الإيمان (٢٦١٦) ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣) ، والحديث في صحيح سنن الترمذي (٢١١٠) ، وفي صحيح سنن ابن ماجه (٣٢٠٩) .
  - (٤) رواه مسلم في الإيمان (٩١) .
  - (٥) متفق عليه .
  - (٦) متفق عليه .
  - (٧) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٩٣) .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦].

وكما تمت الإشارة في تفسير هذه الآية وما يتعلق بها أنها تعتبر منهجاً قوياً لمن أراد الوصول إلى الحق ، ولأن المقصود من الحوار الوصول إلى الحق ؛ فإن هذه الآية الكريمة ترسم لنا بمقوماتها الثلاثة أصول الحوار الصادق، وذلك فيما يلي :

الأصل الأول : الإخلاص لله عز وجل ، والتجرد الكامل قبل الحوار وأثناءه وبعده : ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ .

الأصل الثاني : العلم بحقيقة واقع القضية المطروحة من الناحية الشرعية والواقعية : ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ .

الأصل الثالث : اعتبار ومراعاة ظروف الحوار والمحاورة : ﴿ مِثْلِي وَفُرَادَى ﴾ .

## الأصل الأول

### الإخلاص لله عز وجل - والقيام له وحده

﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ ﴾

ويدخل تحت هذا الأصل عدة متعلقات ، نذكر منها ما يلي :

#### ١- تصحيح النية قبل الدخول في الحوار :

وذلك بمساءلة النفس عن الغرض من الحوار ؛ أهو إرادة الحق فحسب ، أو أن هناك أغراضاً أخرى : كحب الظهور ، وإفحام الخصم ، و أن يرى الناس مكانه؟ ، فإذا كانت هذه الأغراض موجودة فليحجم المحاور عن الحوار حتى تتجرد نيته تماماً لله عز وجل ، وأنه يريد الحق ، ولو ظهر على لسان الطرف الآخر .

#### ٢- حسن الاستماع والاهتمام بكلام الطرف الآخر :

فالمتحدث البارع مستمع بارع ، فلا بد من حسن الاستماع ، والانتباه لما يقوله الطرف المقابل ، وعدم مقاطعته ، وتركه حتى ينتهي ، وتدوين أي فكرة تطرأ أثناء كلامه حتى يفرغ تماماً ، وهذا من التواضع ، وإعطاء الأهمية لكلام الآخرين ؛ حتى لا يحصل العجب بالنفس ، وأنه الذي ينبغي أن يستمع له وأن غيره ليس عنده ما يستحق ذلك .

كذلك على المحاور المخلص أن يراعي الوقت أثناء حديثه فلا يستأثر بالكلام كله ، بل يعطي الفرصة المكافئة للطرف الآخر؛ حتى لا يحصل العجب بالنفس المنافي للإخلاص ، أو الاحتقار للطرف الآخر . وكذلك لأن

المستمع لا يستطيع أن يركز في سماع من يحاوره دون مقاطعة له أو انشغال عنه أكثر من ربع ساعة ، وبعد ذلك يكمل الذهن ويقل التركيز ، وكما يقال : « إذا أردت أن ينفض الناس من حولك ويسخرون منك فتكلم بغير انقطاع ، ولا تعطي لأحد الفرصة في الحديث » .

### ٣- مراقبة النفس أثناء الحوار :

جرت العادة عند أكثر المتحاورين أن يركزوا انتباههم على الطرف الآخر ؛ يحصون الملاحظات على فكرته وطريقته في الحوار ، دون أن يراقبوا أنفسهم بنفس المقياس ، فينسى الإنسان نفسه ونوازعها ، ونبرات صوته وطريقته في الرد مما يكون له أثر سيئ على الحوار ، ولا شك أن الإخلاص في الحوار يجعل الإنسان ينتبه لنفسه وعيوبه أكثر من غيره . وضعف الإخلاص يحدث في النفس عجباً وشعوراً بأنها فوق الملاحظات .

### ٤- التسليم بالخطأ:

الإنسان بشر يخطئ ويصيب ، فمن الطبيعي أن يخطئ المحاور في مناقشاته وحواره مع غيره ، والإخلاص لله عز وجل ، يفرض عليه التسليم بالخطأ عندما يتبين له وجه الصواب ، بل يشكر لصاحبه فضله في تبصيره له بالخطأ .

### ٥- الحذر من الكذب والغموض والمراوغة :

قد يلجأ المحاور إلى الأساليب الغامضة - بل الكذب أحياناً - إذا أحس بضعف حجته ، أو أنه يريد أن يلبس على الطرف الآخر ويوهمه بما ليس له حقيقة ، وهذه صفة ذميمة يرفضها الإخلاص لله تعالى ، والخلق الكريم ، بل

إن الحوار المبارك هو الحوار الصادق الذي يطمئن كل طرف فيه إلى الآخر ، وإذا طُرح سؤال لا يريد أحد الطرفين الإجابة عليه فليعتذر عن الإجابة ، ولا يلجأ إلى الغموض والمراوغة ؛ لأنه إذا فقدت الثقة بين الطرفين فقد فشل الحوار .

#### ٦- الأمانة :

لابد من الأمانة في العرض والنقل واحترام الحقيقة ، وألا تقطع عبارة عن سابقتها أو لاحقتها عند الاقتباس لتخضعها لخدمة فكرتك ، فهذا نقص في الدين والإخلاص ؛ لأنه تدليس ، والتدليس أخو الكذب ، فضلاً عن أنه يعرض من هذه صفته للسخرية وعدم الثقة به لتلاعبه بالنصوص .

#### ٧- الإنصاف :

من الإنصاف أن يبدي المحاور إعجابه وثناءه على الأفكار الصحيحة ، والأدلة الجيدة ، وحسن الاستدلال ، والمعلومات الجديدة التي يوردها الطرف الآخر ، والإيجابيات والحسنات التي تتمثل فيه أو في فكرته وإن ظهر معها جوانب سلبية ، كما أن من الإنصاف وضع النفس موضع الطرف الآخر ، والظروف المحيطة به ، والتي أدت به إلى الرأي المخالف .

#### ٨- وضع الخطأ في حجمه الطبيعي ، وتجنب الشماتة :

عند وضوح خطأ الطرف الآخر يجب أن يشعر بأن الخطأ ليس من تصحيح حتى لا يداخله الشيطان ، وتفقد مسيرة الدعوة إلى الله من جراء خطئه ، كما أن تواضع الطرف المصيب أمر مهم حتى لا يداخله الشيطان ؛ فيشعر بالتعالي على الطرف الآخر ، أو يشمت به وبفكرته الخاطئة ؛ فالمسلم

المخلص يقصد من الحوار إظهار الحق ولو على لسان مخالفه .

#### ٩- على كل طرف في الحوار تجنب الهزاء والسخرية :

ويدخل في ذلك كل ما يُشعر باحتقار أحدهما للآخر، أو ازدرائه لفكرته، أو وسمه بالجهل، أو قلة الفهم، أو التبسّمات والضحكات التي تدل على السخرية .

#### ١٠- تجنب ضمائر المتكلم أثناء الحديث :

حتى لا يدخل الشيطان إلى النفس ؛ فيقع فيها العجب والغرور ، ينبغي تجنب إدخال ضمائر المتكلم أو ضمير الجماعة في الحديث كتكرار « نحن ، أنا ، عندنا . . . إلخ » مع ما فيها من المضايقة للطرف الآخر .



## الأصل الثاني

### العلم

### ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾

ويدخل تحته التفصيلات التالية :

١ - الاتفاق على منهج الاستدلال والتلقي قبل البدء في نقاش أي مسألة

علمية :

لأن النقاش والمنهج مختلف عن الآخر سيؤدي إلى الدوران في حلقة مفرغة ، وسوف لا يسلم أي طرف لما عند الطرف الآخر من دليل أو استنباط ، وحتى تتضح هذه المسألة أكثر ، نضرب لذلك بعض الصور كما ذكرها الشاطبي في (الاعتصام - الباب الرابع ) تحت عنوان : مآخذ أهل البدع في الاستدلال ، فنذكر منها ( باختصار وتصرف ) ما يلي :

أ - إن من أهل البدع من منهجه الاستدلال بالأحاديث الضعيفة - أو الموضوعية أحياناً - في العقائد والأحكام ، وهذا المآخذ مرفوض عند أهل السنة ؛ لأنهم لا يرضون الاستدلال بالضعيف - فضلاً عن الموضوع - في باب العقائد والأحكام ، فإذا لم يتفق مع الطرف المحاور على خطأ هذا المنهج ، فلن يفلح الحوار في الوصول إلى أي نتيجة ؛ لأن الأدلة التي سيستدل بها الطرف الآخر مرفوضة ابتداء من الطرف الثاني لعدم ثبوتها عنده .

ب - ومن أهل البدع من هو عكس الصورة السابقة ؛ حيث يرفض الاستدلال بالأحاديث الصحيحة بحجة أنها آحاد ، ولا يقبل من ذلك إلا المتواتر ،



وهذا المنهج مرفوض أيضاً عند أهل السنة ؛ حيث إن الدليل إذا ثبتت صحته أصبح صالحاً للاستدلال ولو كان آحاداً ، وبدون الاتفاق على هذا المنهج ابتداء فلن يفلح الحوار في الوصول إلى أي نتيجة . إذن فمن الأولى في مثل هذه الحالات ، وقبل طرح الأدلة ودالاتها على المقصود ، لا بد من الاتفاق على قبول الاستدلال بأحاديث الآحاد الصحيحة .

جـ- كما أن هناك من أهل البدع من منهجه الاحتجاج بأقوال شيخه أو إمامه والتعصب لها ، ونبذ أي دليل يخالف ذلك ، بل إن أهل بعض الملل المبتدعة يرون أن أقوال أئمتهم ومشايخهم هي التشريع بذاته ، ويمكن أن يأخذ الحلال والحرام من أقوالهم ، بل إن لهم نسخ الشريعة وتحليل الحرام أو تحريم الحلال . فإذا لم يتفق على ضلال هذا المنهج وأن ما جاء في الكتاب والسنة والإجماع هو الأصل ، وأن كل ما خالف ذلك فهو مرفوض مهما كان قائله ، فإنه لا فائدة من النقاش .

د - ومن أهل البدع من يعتمد في استدلاله على الرؤى والمكاشفات ، فيصحح بهما الضعيف ، ويضعف الصحيح ، ويحلل ، ويحرم ، ويشرع بهما ما لم يأذن به الله ، فإذا لم يتفق ابتداء على ضلال وخطأ هذا الاستدلال ، فلن يفلح الحوار ، ولن تتحقق أهدافه أبداً .

وصور ما أخذ أهل البدع في الاستدلال كثيرة من أراد التوسع فيها فليرجع إلى الباب المذكور في الاعتصام فإنه مفيد جداً .

## ٢- مراعاة تفاوت الناس في عقولهم وثقافتهم :

فالعالم بما عند الطرف الآخر من علم وثقافة يعين على اختيار الأسلوب ، والمعلومات التي تناسب عقله وحصيلته العلمية ، فتحديث الناس بما يعقلون

أمر مهم في الحوار ؛ لأن عدم مراعاة ذلك يحصل بسببه فتنة وتشويش للطرف الآخر ، ينعكس أثره على إيجابية الحوار .

### ٣- البيان وحسن العرض :

إن قوة التعبير وفصاحة اللسان وحسن البيان والعرض من العوامل المهمة في إيضاح الفكرة وأدلتها ؛ مما يكون له أكبر الأثر في قبول الطرف الآخر للفكرة ، وسهولة إقناعه بحسن الاستدلال عليها ، وهنا يجب تجنب الألفاظ الغريبة صعبة الفهم ، أو الألفاظ المجملة التي تحمل عدة معانٍ من غير توضيح للمعنى المراد منها .

### ٤- البدء بمواطن الاتفاق والنقاط المشتركة :

إن البدء بنقاط الاتفاق لدى الطرفين ، كالمسلّمات والبديهيات وغيرها من الأمور المتفق عليها كل ذلك يقلل الفجوة ويوثق الصلة بين الطرفين ، ويحس كل منهما أن هوة الخلاف قليلة ، وهذا له مردوده النفسي في الحوار . وبالعكس ؛ فإن البدء بنقاط الخلاف يوسع فجوة الخلاف ، ولو من الناحية النفسية ، ولذلك يحرص المحاور الناجح أن يلقي على الطرف الآخر الأسئلة التي سيكون جوابها « بنعم » ، ويتجنب ما يكون جوابه النفي ؛ لأن كلمة « لا » عقبة كؤود يصعب التراجع عنها .

والأمثلة في القرآن الكريم كثيرة ؛ فمثلاً في سورة المؤمنون ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿ [المؤمنون : ٨٤ - ٨٩] .

فهنا نجد أن الله سبحانه وتعالى ألقى عليهم الأسئلة التي يعلم أن جوابهم عليها بالموافقة ، وذلك لإقامة الحجة عليهم في تقرير توحيد الألوهية ؛ لأن ما وافقوا عليه مستلزم لما أنكروه .

### ٥- التوثيق :

ينبغي أن تكون مسائل الحوار موثقة من الناحية العلمية والإسنادية ، فلا يستدل بشيء إلا مسنداً لقائله ، ومصدره الذي أخذه منه ، وأن يستعان بذكر الإحصاءات التي تخدم الفكرة ، والمراجع التي رجع إليها ؛ لأن ذكر الحقائق مدعمة بذكر المصادر والإحصائيات الموثقة ، أعمق أثراً في النفوس من ذكرها مجردة ، كما ينبغي في مثل هذه الحالات الإعراض عن النقول الضعيفة ، والحجج الواهية .

٦- عدم تعرض أحد الطرفين لكلام الآخر ومناقشته قبل فهم مراده تماماً : والتفكير العميق في أدلته ثبوتاً ودلالة ، وألا يقدم على تصحيح فكرة ما أو تخطئتها قبل التأكد من ذلك تماماً .

### ٧- الإحاطة بمواطن الخلاف في القضية المطروحة للحوار:

ويضاف إلى ذلك : الإلمام بأنواع الاختلاف ما يجوز فيه وما لا يجوز ؛ لأن جهل هذا الأمر يوسع دائرة الاختلاف ، فيحصل الاختلاف والفرقة حول مسألة قد يسع الخلاف فيها والاجتهاد ، كما ينبغي الإلمام بأسباب الاختلاف بين علماء الأمة والتي ذكرها شيخ الإسلام في رسالته القيمة (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) .

وبهذه المناسبة ينبغي الإشارة إلى مسائل الخلاف ، وأنواعها ، ومن هو

المحمود فيها ، ومن هو المذموم؟ ، وما هي المسائل التي يسعها الخلاف ،  
والمسائل التي لا يسعها؟ إلى آخر ذلك مما يتعلق بموضوع الاختلاف ، فنقول  
وبالله التوفيق :

إن الاختلاف ينقسم إلى قسمين :

١ - قسم يحمد فيه أحد الطرفين ، ويذم الطرف الآخر ؛ مثل الاختلاف  
الواقع بين المؤمنين والكافرين ، أو بين أهل السنة وأرباب البدع .

وهذا القسم من الاختلاف هو المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ اٰخْتَلَفُوْا  
فَمِنْهُمْ مَّنْ اٰمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ، وكقوله تعالى : ﴿ هٰذٰنِ  
خَصْمٰنٍ اٰخْتَصَمُوْا فِيْ رَبِّهِمْ ﴾ [الحج: ١٩] ، فكل ما يتصل بقضايا العقيدة  
وأصولها والتي لم يختلف عليها سلف الأمة ، وإنما ظهر الاختلاف  
واستشرى بعدهم ، فهو داخل تحت هذا القسم .

٢ - قسم يذم فيه الطرفان المختلفان ، إذا سبب هذا الاختلاف الفرقة  
والعداوة ، ويحمد فيه الطرف الذي لم يجعل هذا الاختلاف سبباً في الفرقة  
والمفاصلة .

وهذا النوع من الاختلاف هو الذي وسع السلف - رحمهم الله تعالى -  
ولم يحصل بينهم بسببه افتراق ولا بغضاء ؛ فكل ما وسع السلف الصالح  
رحمهم الله تعالى فيما اختلفوا فيه ، فيجب أن يسعنا ، ويندرج تحت هذا  
القسم عدة صور نجملها ، فيما يلي :

أ - اختلاف في تحديد موضوع الخلاف : وذلك بأن نجد أحد المختلفين قد  
ذهب إلى موضع من النزاع غير ما ذهب إليه الآخر ، أو أن أحدهما سماه

باصطلاح معين، والآخر سماه باسم آخر، فظهر أن هناك اختلافاً، والحقيقة أنهما اسمان مشتركان لمسمى واحد، فلو حددت المصطلحات، ودقق في المعاني والألفاظ لظهر أن هناك اتفاقاً وليس اختلافاً؛ كالاختلاف الحاصل في تفسير الصراط المستقيم في قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]؛ حيث فسر بالإسلام والقرآن وسنة الرسول ﷺ، وكلها أسماء مشتركة لمعنى واحد هو الدين الإسلامي؛ حيث إن كل قول داخل في معنى القول الآخر، وهذا الأمر لا يأتي إلا بالتفكير الهادئ مع الإخلاص لله عز وجل.

ب- قد يتضح بعد التفكير وتحديد موضع النزاع أن هناك اختلافاً لكن هذا الاختلاف ليس اختلاف تضاد؛ بمعنى أن المعنى الكلي ليس فيه خلاف، إنما الخلاف في تنوع أحاد هذا الكلي، وتعدد الأمثلة التي تحته؛ كمن يذهب إلى معنى جزئي، وآخر يذهب إلى معنى جزئي آخر يندرج كلاهما تحت المعنى العام الكلي.

مثال ذلك: تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ﴾.

[فاطر: ٣٢]

حيث ذهب بعض المفسرين إلى أن الظالم لنفسه المفرط في الصلوات المكتوبة، والذي يؤخرها عن وقتها، والمقتصد المؤدي للصلوة أثناء وقتها، والسابق بالخيرات المؤدي للصلوة في أول وقتها.

وذهب بعضهم إلى أن السابق هو المحسن بالصدقة مع الزكاة، والظالم أكل الربا ومانع الزكاة، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المطلوبة، ولا يأتي

الربا .

وكل قول ، فيه ذكر نوع داخل في الآية ، إنما ذكر لتعريف المستمع بتناول الآية له ، وتنبهه على نظيره . وكل هذه الأقوال ليس بينها خلاف تضاد ؛ لأنها ترجع إلى معنى واحد ، وهو أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للمحرمات ، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات ، والسابق بالخيرات يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات . (انظر : مقدمة في أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية) .

ج- وهذه الصورة من الاختلاف الذي وسع السلف - رحمهم الله تعالى - بأن يكون المعنيان متغايرين لكن ليس بينهما منافاة ؛ لأن هذا قول صحيح ورد فيه دليل ، وذلك قول صحيح ورد فيه دليل أيضاً ، ولا يجوز أن يكون هذا سبباً في الاختلاف . وهذا كثير في المنازعات لعدم معرفة أحد الطرفين بما عند الآخر من دليل .

ومثال ذلك : الاختلاف في صفة الإقامة للصلاة ، فمن قائل بشفعها ، وقائل بإفرادها ، والاختلاف في القراءات . . . الخ .

وكل ما ورد في الشريعة ، عليه دليل صحيح ، ووسع السلف الصالح ، فإنه لا يجوز أن يكون سبباً في الاختلاف المؤدي إلى الفرقة والتباغض ، وهذا بالطبع لا يأتي إلا نتيجة التفكير والبحث وعدم التعجل في رد قول المخالف إلا بعد الاطلاع على كل ما يتعلق بالموضوع من أدلة واستنباطات ، فقد يتضح بعد البحث أن كلا القولين ثابت وصحيح عن الرسول ﷺ ، وبذلك ينتهي الخلاف .

د- الخلاف حول قضية معينة ورد الدليل عليها ، وأورد المخالف دليلاً آخر مخالفاً لها ، لكن أحد الدليلين أقوى من الآخر وأرجح ، فهذا أيضاً لا

ينبغي أن يكون سبباً في الفرقة ؛ لأن ما وسع أصحاب رسول الله ﷺ وأئمة السلف ينبغي أن يسعنا .

وهذا يقع في كثير من الأحكام التي اختلف فيها العلماء ، وعندما يعلم أن هؤلاء الأئمة ما اختلفوا لهوى في نفوسهم ، بل وقف كل منهم مع ما عنده من الدليل ، فربما وصل إلى أحدهم ما لم يصل الآخر ، أو صح عنده ما لم يصح عند غيره ، كما بين ذلك شيخ الإسلام في رسالته : (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) ، ولكن مع ذلك فالواجب في هذه الحالة العمل بالدليل الراجح وترك المرجوح ، عند من تبين له ذلك بوجه شرعي .

ولكن هذا لا يعني موافقة من يأخذ بالأقوال الشاذة أو بعض سقطات العلماء ، والتي يكون الدليل على خلافها ؛ بل الواجب تصحيح المخالف وإرجاعه إلى الدليل ، وتوضيح وجه الشذوذ فيما أخذ به ؛ لأن هناك من يقول : ( أي قضية لم يجمع عليها الصحابة فالأمر فيها واسع) وهذا القول ليس صحيحاً على إطلاقه ، فقد ذكر الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله في رسالته : ( إتمام المنة والنعمة في ذم اختلاف الأمة) بعد كلام جيد حول هذا الأمر ننقل منه المناسب لموضوعنا . قال رحمه الله تعالى :

« وأما احتجاجه بقول النووي : « إن العلماء إنما ينكرون على من خالف ما أجمع عليه ، وأما المختلف فيه فلا إنكار فيه لأنه على أحد المذاهب : كل مجتهد مصيب . قال : وهذا هو المختار عند كثير من المحققين أو أكثرهم . انتهى ما حكاه . فيقال في جوابه : أنت لم تستكمل عبارة النووي ، بل تصرفت فيها ، وأخذت ما تهوى وتركت بقية العبارة ؛ لأنه

عليك مع اتصالها وتقييد بعضها ببعض .

قال النووي بعد ما تقدم : لكن إن أريد به على جهة النصيحة - أي الخروج من الخلاف - فهذا حسن محبوب مندوب إلى فعله برفق ، فإن العلماء متفقون على الحث إلى الخروج من الخلاف إذا لم يلزم منه إخلال بالسنة أو وقوع في خلاف آخر .

هذا كلام النووي قد استبان لك أن مراده إذا لم يظهر دليل ، ولم يترجح جانب الإنكار بكتاب أو سنة أو إجماع أو قياس جلي . . . وأما أقوال الآحاد من العلماء فليست بحجة إذا لم يقترن بها دليل شرعي ، وما زال العلماء يردون على من هو أجل منه « اهـ »<sup>(١)</sup> .

وبعد هذا التفصيل فيما يجوز الاختلاف فيه وما لا يجوز ، نتوجه إلى جميع المختلفين أن يقفوا وقفة مع نفوسهم ، ويسأل كل واحد منهم نفسه أو صاحبه ، ومن يخلص له النصح والتذكرة : أين نحن من أنواع الاختلاف ؟ وأين نحن من البغي والاعتداء في الخلاف ؟ ، وأين نحن من أدب الخلاف وأخلاقه ؟ ، وما كانت الأمة لتفترق إلا بسبب البغي والحسد والجهل ؛ وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : «ولكن الاجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة إلا مع البغي لا لمجرد الاجتهاد»<sup>(٢)</sup> .

٨ - أن يعطى كل طرف في الحوار فرصته في التعبير عن فكرته والإحاطة بها من جميع الوجوه ؛ لأن قطع الفكرة أو التشويش عليها يؤثر على تسلسل الأفكار وترابطها .

(١) إتمام المنة والنعمة : ص ٤٧ ، ص ٤٨ .

(٢) الاستقامة (١/٣١) .



يجب أن يكون عند أصحاب الحوار من الإخلاص والخوف من الله عز وجل بأن يقول أحدهم : لا أعلم ، عند السؤال عن مسألة لا يعلمها ، أو لم يبحثها بحثاً كافياً ، وألا يستحي من ذلك ، وأن يطلب الإمهال حتى لقاء آخر ليأتي بالجواب عنها إن وجد جواباً .

#### ١٠- التفريق بين الفكرة وصاحبها :

وذلك بأن يتم تناول الفكرة المطروحة بالبحث والتحليل والنقد أو التزكية ، بعيداً عن صاحبها حتى لا يتحول الحوار إلى مبارزة كلامية تناقش فيها تصرفات الأشخاص ونواياهم ، ولكن في بعض الأحوال ينبغي تناول أصحاب الأفكار أنفسهم بالجرح والتعديل حسب مقاييس أهل السنة ، وذلك عندما نخشى ضلالتهم أو تأثر الناس بأفكارهم ، ولكن كل ذلك يتم بإخلاص وإنصاف .

#### ١١- إقفال المناقشة :

عندما تتسع شقة الحوار ، أو يتضح أثناء النقاش أن هناك أموراً أساسية برزت لم يتم التحضير لها ، أو لا يكفي الوقت لمناقشتها ، فيحسن في مثل هذه الأحوال إقفال النقاش وتأجيله إلى وقت آخر يتم التحضير والاستعداد الجيد له ، كما ينبغي قفل النقاش عندما يتبين أن الطرف الآخر في الحوار غير جاد ، أو مستهتر ، أو كان دون المستوى المطلوب للخوض في القضايا المعدة للحوار .

## الأصل الثالث

### ظروف الحوار والمتحاورين

#### ﴿ مثنى وفردى ﴾

وهذا هو الأصل الثالث الذي يراعى عند الحوار والمناظرة ، وقد أشارت الآية الكريمة إلى جانب من ذلك عند قوله تعالى : ﴿ مثنى وفردى ﴾ ، وسنشير هنا - إن شاء الله تعالى - إلى بعض الجوانب التي تتعلق بظروف الحوار ؛ لأن إلغائها يؤثر كثيراً على طبيعة الحوار ونتيجته ، ومن هذه الجوانب ما يلي :

#### ١- مراعاة الجو المحيط بالحوار :

ويقصد بالجو هنا الجو النفسي ، والمؤثرات المحيطة بالحوار ، وذلك كما في الآية الكريمة ؛ حيث يوجه الله عز وجل طلاب الحق أن يبتعدوا عن الأجواء الجماعية والغوغائية ؛ لأن الحق قد يضعف في مثل هذه الأجواء ؛ حيث التقليد الأعمى ، والتبعية للأكثرية ، بينما لو قام الإنسان مع نفسه أو مع شخص آخر للتفكير حول قضية ما ، فإنه يكون أقرب إلى إصابة الحق منه في الاجتماعات الكبيرة ، ويقدر ما يقل المتحاورون أو السامعون في الحوار بقدر ما ينقاد إلى الحق عند ظهوره .

#### ٢- مراعاة الجو الحسي للحوار :

وذلك من حيث البرودة والحرارة والاتساع والضيق . . إلخ ؛ لأن وجود ما يؤدي في جو الحوار يؤثر على طبيعة النقاش ونتيجته ، وقد يبتتر

النقاش ، أو يختصر دون وصول إلى نتيجة ، وكذلك - مما يتعلق بهذا الجانب - اختيار المكان الهادئ ، وإتاحة الزمن الكافي للحوار ، فلا تصلح أماكن الدراسة ، والعمل ، والأسواق للحوار ، وذلك لضيق الوقت ، ولوجود ما يشغل .

### ٣- مراعاة الطرف النفسي والاجتماعي للطرف المحاور أو المحاور :

فلا يصلح أبداً أن يتم الحوار مع شخص يعاني من الإرهاق الجسدي لتعب ، أو حاجة لنوم ، أو بسبب جوع ، أو يعاني من إرهاق نفسي : كههم ، أو غم ، أو حزن ؛ لأن هذه الظروف لا بد أن تؤثر حتماً على الحوار ؛ إما ببتره قبل تمامه ، أو حدوث انفعالات ، وغضب ، وتوتر ، يؤدي بالحوار إلى الفشل الذريع .

### ٤- أهمية المحادثة الأولى والتعارف الذي يسبق الحوار:

إن المحادثات الأولى والتعارف الأول على الطرف المحاور يساعد على سهولة البدء في المناظرة وسيرها فيما بعد بالشكل المناسب ؛ إذ من الصعب أن يتبدأ مباشرة بالحوار مع أشخاص لم يتم أي تعارف معهم ولو كان يسيراً ؛ لأن في جلسة التعارف هذه فائدة في التعرف على طبيعة الطرف الآخر ، ولو بشكل مبدئي من خلال مظهره ، وحديثه ، ونبرات صوته ، وحصيلته العلمية ؛ مما يكون له الأثر في معرفة الظروف النفسية ، والميول الذهنية للشخص المحاور ، وهذا بدوره يساعد في طريقة وأسلوب الحوار مع الناس ، كل حسب ظروفه .

ويمكن أن تتم جلسة التعارف هذه على شكل دعوة غداء أو عشاء تتم فيها أحاديث غير رسمية عن : الصحة ، والعمل ، والأولاد ، وعن رأيه في

الكتاب الفلاني ، وفي الفكرة الفلانية ، وعن أي أمر عام ليس له علاقة بموضوع الحوار .

فهذه الطريقة على أي حال أفضل بكثير من أن يفاجأ المرء بأشخاص لم يضع في ذهنه أي تقدير لهم ، ولظروفهم ، فيؤدي ذلك إلى فشل الحوار ، وكذلك الاكتفاء بالتعريفات العابرة من الآخرين ؛ كأن يخبر بأن الشخص لطيف ، وسهل التعامل ، وحليم ، ويفاجأ بالعكس تماماً .

٥- أن يكون المتحاوران متقاربين ما أمكن في العلم والجاه : وأن يتجنب مناظرة ذي هيبة يخشى أو يستحي من مناظرته ؛ لأن ذلك يؤثر على قوة الحجة والجرأة على الإدلاء بها .

٦- ينبغي اجتماع أصحاب الحوار في مكان واحد ، وتقابلهما فيه : وأن ينظر بعضهم للآخر ؛ لأن رؤية الوجوه والملامح له أثر في قوة الحجة أو ضعفها ، وفي هذه الحالة لا تصلح المراسلات للحوار ، ولا يصلح كذلك الحوار بواسطة الهاتف إلا في أضيق الظروف .

#### ٧- مراعاة الآداب الإسلامية (القول منها والعمل):

والذي يكون له مردوده النفسي على أطراف الحوار ، وسلامة قلوبهم وصفاتها ، والانقياد للحق عند ظهوره ، ومن هذه الآداب :

أ - احترام الطرف الآخر ، والتأدب معه ، وحفظ اللسان عما يسوءه من الألفاظ ، وعدم السخرية برأيه ، وأن يثني عليه بما فيه وما في فكرته ، من الإيجابيات والخير الكثير .

ب - التلطف في العبارات أثناء الحوار ، فبعض العبارات قد تفتح

مغاليق النفوس ، وهي يسيرة على من يسرها الله عليه ؛ من الكلمة الطيبة التي تقرب النفوس ، وتزيل الجفوة ، وتهيب النفوس لاستقبال الحق ، والأمثلة في ذلك كثيرة ؛ كمناداة الطرف الآخر بكينته ، وإذا كان أكبر سناً أو علماً ، يا أستاذي ويا شيخي . . . اسمح لي . . . عفواً .

ج- ابتسم في وجه محدثك وأطلق أسارير الوجه أثناء الحوار ؛ فهذا يضيف على الحوار جو الألفة والانس .

د- اجتنب الغضب ما أمكن ، ولو عارضك الطرف الآخر ، أو أغلظ القول لك ، واستخدم الرفق واللين .

هـ- تجنب اللوم المباشر عند وضوح خطأ الطرف الآخر ؛ فالنفس غالباً لا تتحمل قول : (أخطأت) أو ( سأثبت لك أنك مخطئ) أو ( أنا أخالفك في الرأي) ؛ فهذه الألفاظ قد تجرح عند بعض الناس كبرياءه وشخصيته .

لكن عندما يبدو الخطأ فيمكن معالجته بمثل قولك : لكن أرى رأياً آخر قد أكون مخطئاً فيه ، أو لعلك تصلح لي خطئي . وإذا كان الخطأ يمكن إصلاحه ببعض الإضافات ، فتقول : هل لك أن تفعل هذا؟ أو : ما رأيك في إضافة هذه العبارة . . . ؟ ، أو : ما المانع لو اتفقنا على هذا التعديل ؟ . . . إلخ .

#### ٨- التحدي والإفحام :

وهذا الأسلوب يلجأ إليه مع المماحكين الذين همهم الجدل والاستهزاء وإثارة الشبه وتضليل الناس ؛ فمثل هؤلاء لا ينفع معهم اللين والرفق ، وإنما

الذي ينبغي في حقهم إفحامهم ومناظرتهم على الملأ الذين قد ضلوا بسببهم؛ وذلك حتى تدحض حججهم وتسقط هيبته من النفوس وتبين وهن فكرتهم واضطرابها . لكن ينبغي لمن أراد مناظرتهم أن يكون على مستوى من العلم، والذكاء، والشجاعة؛ بحيث لا يؤتى من قبل قلة علمه، أو سطحيته، أو نحو ذلك .

### ٩- المحافظة على هدف الحوار والوصول إلى نتيجة :

تحديد هدف الحوار - قبل الدخول فيه - أمر مهم ، والمحافظة على الهدف أثناء الحوار أيضاً أمر مهم ؛ لأن ذلك يحافظ على التركيز ، وعدم الخروج عن موضوع الحوار بمناقشة جزئيات أو أمور جانبية بعيدة عن موضوع الحوار؛ مما يكون له الأثر في ضياع الوقت ، وعدم الوصول إلى نتيجة في آخر الأمر .

\* وبعد :

فهذه جملة من أصول الحوار وآدابه ، أعرضها على علاتها ونقصها ، لعلها تفتح المجال لعلماء الأمة ودعاتها أن يفصلوا الأمر حول هذا الموضوع ويكملوا ما نقص منه ، فالمسلمون في حاجة ماسة إلى استقصائه وإتمامه .

أسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا الحديث القلوب المخلصة التي أدمتها الخلافات وخيم اليأس على بعضها ، ولعل الأخوة الذين صاروا أعداء وهم أقرب الناس بعضهم إلى بعض ، أن يقوموا لله عز وجل ويتفكروا مع أنفسهم أو مع بعضهم البعض ، وأن يحفظ كل واحد منهم حق أخيه ، ويعلم أن أخاه وإن كان مخطئاً في شيء فقد أصاب في أشياء أخرى ؛ ما دام أنه من أهل السنة وأتباع السلف .

فيا أتباع محمد ﷺ ، ويا محبي أصحاب محمد ﷺ جردوا أنفسكم لله تعالى ، واقتدوا بسلف الأمة ، الذين كانوا حريصين على جمع الكلمة وسلامة القلوب ، وكان أبغض شيء لديهم الفرقة والاختلاف ، فهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عندما قيل له : إن عثمان بن عفان أتم بالمسلمين في منى وكانت السنة القصير ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم لم يمنعه ذلك من أن يأتهم بعثمان ويتم الصلاة معه أربعاً ، فلما قيل له في ذلك ، قال : إن الخلاف شر . فحري بمن أحب السلف والتزم بمنهجهم أن يلتزم بمنهجهم الشامل في الاعتقاد والسلوك .

وماتم عرضه في هذا البحث يمثل إن شاء الله تعالى بعض آداب السلف الصالح في حوارهم واختلافهم ، وهي بدورها الآداب التي هدانا الشرع إليها لنخرج من الاختلاف ؛ بل ننازعه بقدر الله عز وجل ، وأسبابه الشرعية التي شرعها الله لنا والتي لا سبيل للنجاة والخلوص من الشرور إلا بالرجوع إليها .

ومن سلك سبيل الهدى وصدق مع الله عز وجل ، في طلبه للجماعة والائتلاف ، يسر الله له سبيله ، وألّف بينه وبين إخوانه من الدعاة الصادقين ، ومن سلك سبيل الضلال من أهل الزيغ والفرقة والاختلاف ، أضله الله سبيله وأزاعه عن الهدى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .





الرسالة الثالثة

قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ

[ آل عمران : ١٦٥ ]

عبد العزيز بن ناصر المجالي



## مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإن عنوان هذا الموضوع جزء من آية كريمة نزلت مع ما قبلها وما بعدها في غزوة أحد الشهيرة ، والتي أصاب المسلمين فيها ما أصابهم من القرع الشديد ؛ حيث قُتل فيها سبعون من الصحابة ، وجرح الرسول الكريم ﷺ ، وشُجَّ وجهه الشريف ، وانكسرت ربايعته ﷺ ، وهذه الآية واحدة من ثمانين آية نزلت في سياق الغزوة في سورة آل عمران ، وفي هذه الآيات من العبر والدروس الشيء العظيم ، ونكتفي في موضوعنا هذا بالآية المذكور جزء منها في عنواننا هذا ؛ حيث يقول الله تعالى : ﴿ أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِهَا قُلْتُمْ أَنَّنِي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٦٥] .

وقد جاءت هذه الآية تعقيماً على سؤال سألها أصحاب محمد ﷺ عن سبب الهزيمة التي حلت بهم ، وجواباً لاستغرابهم القرع الشديد الذي أصابهم وهم المسلمون وقائدهم سيد البشر ، وحبیب الرحمن محمد ﷺ ، وعدوهم

المشركون المشاقون لله وللرسول ، فجاءهم الجواب من العليم الخبير العزيز الحكيم أنهم أتوا من عند أنفسهم ، وبسبب ذنوبهم وقد قدر الله عز وجل هذه المصيبة ، لحكم أخرى ذكرتها الآية التالية لهذه الآية ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٦ ، ١٦٧] .

قال الإمام الشوكاني رحمه الله حول قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ ... ﴾ الآية :

«الألف للاستفهام بقصد التقريع ، والواو للعطف . والمصيبة : للغلبة والقتل الذي أصيبوا به يوم أحد . ﴿ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا ﴾ يوم بدر ؛ وذلك أن الذين قتلوا من المسلمين يوم أحد سبعون ، وقد كانوا قتلوا يوم بدر من المشركين سبعين وأسرروا سبعين ، فكان مجموع القتلى والأسرى يوم بدر مثلي القتلى من المسلمين يوم أحد .

والمعنى : أحيان أصابكم من المشركين نصف ما أصابهم منكم قبل ذلك جزعتم وقتتم : من أين أصابنا هذا ؟ ، ونحن نقاتل في سبيل الله ، ومعنا رسول الله ﷺ ، وقد وعدنا الله بالنصر عليهم .

وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أمر لرسول الله ﷺ بأن يجيب عن سؤالهم بهذا الجواب ؛ أي هذا الذي سألتهم عنه هو من عند أنفسكم بسبب مخالفة الرماة لما أمرهم به الرسول ﷺ من لزوم المكان الذي عينه لهم ، وعدم مفارقتهم له على كل حال .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ خروجهم من المدينة ، وقيل : هو اختيارهم الفداء يوم بدر على القتل . اهـ .  
ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على هذه الآية بقوله :

« لقد كتب الله عز وجل على نفسه النصر لأوليائه حملة رايته ، وأصحاب عقيدته ، ولكن علق هذا النصر بكمال حقيقة الإيمان في قلوبهم ، وباستيفاء مقتضيات الإيمان في تنظيمهم ، وسلوكهم ، وباستكمال العدة التي في طاقتهم ، وبذل الجهد الذي في وسعهم ، فهذه سنة الله ، وسنة الله لا تحابي أحداً .

فأما حين يقصرون في أحد هذه الأمور ، فإن عليهم أن يتقبلوا نتيجة التقصير ؛ فإن كونهم مسلمين لا يقتضي خرق السنن ، وإبطال النواميس ؛ وإنما هم مسلمون ؛ لأنهم يطابقون حياتهم كلها على السنن ويصطلحون بفطرتهم كلها مع الناموس .

ولكن كونهم مسلمين لا يذهب هدرأ ، كذلك ، ولا يضيع هباءً ؛ فإن استسلامهم لله وحملهم الراية وعزمهم على طاعته ، والتزام منهجه - من شأنه أن يرد أخطاءهم وتقصيرهم خيراً وبركة في النهاية ، بعد استيفاء ما يترتب عليها من التضحية والألم والقرح ، وأن يجعل من الأخطاء وتناجها دروساً وتجارب تزيد من نقاء العقيدة ، وتمحيص القلوب ، وتطهير الصفوف ، وتؤهل للنصر الموعود ، تنتهي بالخير والبركة ، ولا تطرد المسلمين من كنف الله ورعايته ، بل تدهم بزاد الطريق ، مهما يمسه من القرح والألم والضيق أثناء الطريق .

وبهذا الوضوح والصراحة معاً يأخذ الله الجماعة المسلمة ، وهو يرد على تساؤلها ودهشتها مما وقع ، ويكشف عن السبب القريب من أفعالها : ﴿ أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، أنفسكم هي التي تخلخلت وفشلت وتنازعت في الأمر ﴿ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ فأنفسكم هي التي أخلت بشرط الله وشرط رسوله ﷺ ، وأنفسكم هي التي خالجهما الهواجس والأطماع ، وأنفسكم هي التي عصت أمر رسول الله ﷺ ﴿ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ﴾ ؛ فهذا الذي تستنكرون أن يقع لكم وتقولون : كيف هذا ؟ ، هو من عند أنفسكم بانطباق سنن الله عز وجل عليكم حين عرضتم أنفسكم لها « اهـ

ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] ، ومعنى هذه الآية من الوضوح بحيث لا يحتاج معه إلى توضيح وتفسير .

ويقول الله عز وجل : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٥٣] .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية :

« يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ » [الرعد : ١١] اهـ .

وقال صاحب الظلال رحمه الله حول نفس هذه الآية :

« إنه من جانب يقرر عدل الله عز وجل في معاملة العباد ، فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم ، ويبدلوا سلوكهم ، ويقلبوا أوضاعهم ، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختيار ، من النعمة التي لم يقدروها ويشكروها .

ومن الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق الإنساني أكبر تكريم حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجري ، عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله ، ويحصل التغيير القدري في حياة الناس مبنياً على التغيير الواقعي في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم ، وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم ، ومن جانب ثالث يلقي تبعة عظيمة - تقابل التكريم العظيم - على هذا الكائن ، فهو يملك أن يستبقي نعمة الله عليه ، ويملك أن يزداد عليها إذا هو عرف فشكر ، كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا هو أنكر وبطر وانحرفت نواياه ، فانحرفت خطاه » اهـ .

## أهمية الموضوع

ومن هذا الاستعراض العام لمفهوم هذه الآيات يتبين لنا خطورة العوائق الداخلية في أنفسنا ، والتي لها دور كبير في حصول المصائب الفردية والجماعية ، فنحن المسلمين اليوم كثيراً ما نلقي أسباب هزائمنا وتأخرنا عن غيرنا على العوائق الخارجية كالغزو الفكري ، وكيد الكفار والمفسدين .

ولا شك أن للعوائق الخارجية دوراً في مصائبنا ، لكنها لم تكن لتؤدي دورها لو أصلحنا ما بأنفسنا ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَأَيُّضْرُكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنْ أَلَّ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٠] ، فما كان لكيد الأعداء الخارجيين أثر لو صبرنا واتقينا الله عز وجل وحاربنا عدونا الداخلي الذي بين جوارحنا ، كما قال أحد الدعاة - رحمه الله تعالى - تلك المقولة الحكيمة : « أقيموا دولة الإسلام في نفوسكم تقم في أرضكم » .

إن الاهتمام بإزالة العوائق الداخلية، جزء أساسي من اهتمامنا بتوفير شروط الانتصار على العوائق الخارجية، التي تحاول منع تحركنا نحو أهدافنا .

إننا معشر الدعاة كثيراً ما ننسى أنفسنا ، ونحن ندعو الناس ؛ حيث نجعل أكثر همنا في الآخرين ، والتفتيش عن عيوبهم ونقدهم ، وفي هذه الزحمة ينسى أو يتناسى الإنسان نفسه ، وما فيها من الأمراض والمخالفات التي قد تفتك به في يوم من الأيام ، وإن نسيان النفس والحرص على إصلاحها والوقوف على سيئاتها، علامة خطيرة يخشى على صاحبها أن يقع



تحت قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩].

وعندما نطرح مثل هذا الموضوع ؛ فإننا نحتاج في ذلك إلى قومة لله عزوجل صادقة ، ووقفه شجاعة مع أنفسنا ، لنفتش وننقب في أعمالنا الظاهرة والباطنة ، وسنجد وللأسف - كما سيتبين - أشياء وأشياء ، لولا ستر الله عز وجل ورحمته لما قبل الناس منا كلمة واحدة .

وقبل أن نستعرض هذه الأمراض والمثالب الموجودة في حياة بعضنا ، أنبه إلى ملاحظة مهمة : وهي أن نتبه لخطر الشيطان ومدخله ونحن نطرح مثل هذه المواضيع ؛ لئلا يدخل علينا مدخلاً آخر فيزيد الطين بلة كما يقال .

وذلك لأنه قد نجد بعد طرح هذه المخاطر أننا أو بعضنا واقعون في بعضها أو أكثرها ، وهنا ينبغي ألا ندع للشيطان فرصة ولا مدخلاً علينا ليحطم نفوسنا ، ويبيث اليأس فيها محاولاً القضاء على ما فيها من خير بقوله لمن هذه حاله : أنت لست على مستوى الدعوة ، ولا على مستوى من يدعو إلى الله ، ويمثل الإسلام ، وأنت منافق ، وأنت وأنت . . . فيزداد بذلك انحرافاً ، وبعداً عن الخير ، وأهله . فالحذر الحذر من هذا المزلق والمدخل الخطير .

والمقصود من طرح هذا الموضوع هو تنبيه الغافل ، وتذكير الناسي إلى ضرورة الرجوع إلى النفس ، ومحاسبتها وتفقدتها ، وأن نتذكر أثر الخلل الداخلي في مصائبنا أفراداً وجماعات ، لعلنا نقوم من عثرتنا ، ونصلح فساد قلوبنا وأخلاقنا .

وبداية العلاج اكتشاف المرض والشعور بوجوده . والشعور بالمرض

مصيبة ، ولكن أعظم من ذلك أن يكون موجوداً ولا يشعر بوجوده ، أو يشعر به لكنه يسلك بها سبيلاً ، يوحى إلى نفسه ومن حوله أن ما هو عليه كياسة وفطنة ، وقد يتعسف ببعض الأدلة لتبرير حاله المتردية .

إذن يصبح الخطب غير خطير إذا اكتشف الإنسان هذه الأمراض من نفسه في وقت مبكر ، واعترف بها ، ولم يحاول تسويغها ؛ لأن العلاج يبدأ من معرفة الداء ، والله المستعان .

وما ستعرض له في هذه الدراسة هو بعض ما توصل له الذهن من العوائق الداخلية ، رآها الكاتب واستقرأها من نفسه أو ممن حوله من دعاة المسلمين ، ويمكن تلخيص هذه الأمراض والعوائق فيما يلي :

#### ١- مساوئ القلوب وأمراضها :

إن أمراض القلوب لتعتبر أخطر الأمراض ، وأشنعها على الإطلاق ، وما ذاك إلا لأن القلب هو سيد الأعضاء ؛ فبصلاحه تصلح سائر الأعضاء ، وبفساده يحصل الفساد للجميع ، وهذا معنى قوله ﷺ : « ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب »<sup>(١)</sup> .

فبصلاح القلب تصلح النيات والمقاصد ، وتصلح العين فلا تنظر إلا في مرضات الله عز وجل ، وتصلح الأذن فلا تسمع إلا ما يرضي الله عز وجل ، ويصلح اللسان فلا ينطق ولا ينفلت إلا بما فيه مرضات الله عز وجل ، وتصلح اليد فلا تبطش إلا فيما يحبه الله عز وجل ، وتصلح الرجل فلا

(١) متفق عليه .

تخطو إلا إلى ما يرضي الله عز وجل ، وبالجمله يصلح كل كيان الإنسان ؛  
ظاهره وباطنه ، فلا يتحرك إلا في نور الله عز وجل ، وبنور الله عز وجل .

وإن هذا القلب - على عظم شأنه - كثيراً ما ننساه ، ونتشاغل بغيره من  
الأعمال الظاهرة ، ومع أن هذا مطلوب إلا أنه لا بد أن يكون لأعمال الجوارح  
أصل ومنطلق إيماني قلبي ، وهذا واضح من تعريف الإيمان عند أهل السنة ؛  
فهو قول وعمل ؛ قول القلب وعمله ، وقول اللسان ، وعمل الجوارح ،  
ومع أنه لا ينبغي أن يطغى اهتمام شيء على شيء ، إلا أنه ينبغي أن نعطي  
لأعمال القلوب اهتماماً خاصاً باعتبارها الأصل الأصيل في كل الأعمال .

والمقصود أن هناك تفريطاً في التفتيش عن القلوب وأمراضها ودوائها ،  
في الوقت الذي نجد من أصيب ببعض هذه الأمراض قد حافظ على الأعمال  
الظاهرة ، وتورع عن بعض الصغائر والمشتبهات ، ويحسب أن الذي ينقصه  
هو هذه فقط ، وما درى المسكين أن لديه في قلبه من الأمراض ما يوجب عليه  
التورع منها ، وتقديم معالجتها على غيرها .

ولا يعني هذا أن يترك المسلم الورع في الصغائر والمشتبهات ؛ كلا ،  
فهذا شيء طيب ، ولكن الذي أردنا التنبيه إليه هو أن هذا الذي يتورع عن  
شيء صغير - قد يكون من الأمور المباحة ، ويتصور أن هذا ما ينقصه  
فحسب - قد فرط في واجب صريح ، أو ارتكب عملاً محرماً صريحاً .

ونظراً لأهمية هذه المسألة أنقل كلاماً نفيساً لشيخ الإسلام ابن تيمية  
رحمه الله تعالى يتعلق بهذا الموضوع ، أو قريباً منه ؛ حيث يتحدث عن غلط  
بعض الناس في فهم الورع ، فقال :

« . . . لكن يقع الغلط في الورع على ثلاث جهات :

أحدها : اعتقاد كثير من الناس أنه من باب الترك ، فلا يرون الورع إلا في ترك الحرام ، لا في أداء الواجب ، وهذا ما ابتلي به كثير من المتدينة المتورعة ، ترى أحدهم يتورع عن الكلمة الكاذبة ، وعن الدرهم فيه شبهة لكونه من مال ظالم ، أو معاملة فاسدة ، ويتورع عن الركون إلى الظلمة من أجل البدع في الدين ، وذوي الفجور في الدنيا ، ومع هذا يترك أموراً واجبة عليه ؛ إما عيناً أو كفاية وقد تعينت عليه ، من : صلة رحم ، وحق جار ، ومسكين ، وصاحب ، ویتيم ، وابن سبيل ، وحق مسلم ، وذو سلطان ، وذو علم ، وعن أمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، وعن الجهاد في سبيل الله . . . إلى غير ذلك مما فيه نفع للخلق في دينهم ودنياهم مما وجب عليه . أو يفعل ذلك لا على وجه العبادة لله تعالى ؛ بل من جهة التكليف ونحو ذلك»<sup>(١)</sup> اهـ .

وقال رحمه الله تعالى حول المسألة أيضاً :

« وتام الورع أن يتعلم الإنسان خير الخيرين ، وشر الشرين ، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد ، وتقليلها ، وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية ، والمفسدة الشرعية ؛ فقد يدع واجبات ، ويفعل محرمات ، ويرى ذلك من الورع ، كمن يدع الجمعة والجماعات خلف الأئمة الذين فيهم بدعة ، أو فجور ، ويرى ذلك من الورع ، ويمتنع من قبول شهادة الصادق ، وأخذ علم العالم لما في صاحبه من بدعة خفيفة ، ويرى ترك قبول سماع هذا الحق الذي يجب سماعه من الورع»<sup>(٢)</sup> اهـ .

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٣٩/٢٠).

(٢) المصدر السابق (٥١٢/١٠).

إذن فالاهتمام بتقوى الله عز وجل وابتغاء مرضاته في العمل هو الذي ينبغي أن يُحرص عليه أشد من حرصنا على العمل نفسه ؛ لقوله تعالى : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ﴾ [الحج : ٣٧] .

وعلى هذا ؛ فأعمالنا القلبية من أهم الأمور التي يجب أن نعني بها ونلتفت إليها ولا ننساها ؛ لأن نسيان هذا الأمر يفرز رجالاً يحسنون الحديث عن الإسلام ، ويجيدون الوعظ والتدريس والخطابة ، ويظهرون الحرقه على هذا الدين حتى يخيل للسامع أنهم عمالقة مجاهدون صادقون ، وهم ليسوا كذلك ، وقد يوجد هذا الصنف من الناس في طبقات المؤلفين الكتاب ، فكم رأينا رجالاً ظننا أنهم أصحاب تضحيات وهمم عالية ، وذلك من خلال ما يقرأ لهم من مؤلفات ، لكن ما أن يقع البصر عليهم ، ويحصل الاحتكاك والمصاحبة لهم حتى يتبين شيء آخر يناقض ما تخيله المتخيل عنهم قبل رؤيتهم . وهنا مكمّن الخطر ؛ أن يوجد داعية ما ، يعجب الناس بدعوته ، ويكبر في أعينهم مع أن في قلبه من الأمراض ما لا يعلمه الناس ، والله به عليم . نسأل الله عز وجل أن يصلح فساد قلوبنا .

وتزداد خطورة هذا الأمر عندما نتذكر قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه نذكر منه الشاهد هنا وهو قول الرسول ﷺ : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة ، فيما يبدو للناس ، وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار ، فيما يبدو للناس ، وهو من أهل الجنة »<sup>(١)</sup> .

ومناسبة هذا الحديث لموضوعنا قوله ﷺ : « فيما يبدو للناس » ؛ فقد يبدو للناس عن شخص ما أنه من أهل الجنة ، فيما يظهر لهم من أعماله الصالحة ، ودعوته ، ووعظه ، فيغبطه الناس على ذلك ، ولكن قد يكون (١) رواه البخاري في الجهاد (٢٨٩٨) ، ومسلم في الإيمان (١١٢) .

في قلب هذا الرجل دسيسة من شبهة أو شهوة لا يعلمها الناس ، ولكن يعلمها علام الغيوب ، وقد يعلم بها صاحبها لكنه يتغافل عنها ، أو يبررها ، وقد لا يحس بها أصلاً إلا إذا فتش ونقب ، ومن هنا تتبين خطورة هذه الدسائس القلبية الخفية ، وما قد تؤدي إليه من خاتمة مأساوية ، وكل مأساة تهون عند مأساة النار والعياذ بالله .

فيا أخوة الإيمان ؛ لنفتش في قلوبنا عن هذه الأمراض قبل فوات الأوان ، ولا نتصور أننا بريئون منها ، أو أن غيرنا هم الواقعون فيها ، ولكي يتضح هذا الأمر بصورة جلية نذكر بعض الأمراض القلبية والتي لا يسلم منها إلا من رحم الله :

#### أ- مرض الحسد :

هذا المرض العضال الذي قل من يسلم منه ، لكن بين مقل منه ومكثر . هذا المرض الذي يتصور أحدنا أنه مُعافى منه ، لكن ما أن يمر به موقف يتطلب منه سلامة القلب ، وحب الخير للغير حتى يكتشف هذا المرض من نفسه .

والحسد : هو تمنى زوال النعمة عن صاحبها ، أو هو كراهية نعمة الله على الغير ، ولو لم يتمن زوالها .

فإذا أنعم الله عز وجل على أحد المسلمين بنعمة من مال ، أو منصب ، أو زوجة ، أو أولاد ، أو غير ذلك من متاع الدنيا ، أو كانت النعمة دينية ؛ كطلب علم ، وعبادة ، ودعوة . . . إلخ . فليتفق أحدنا قلبه تجاه من أنعم الله عز وجل عليه بإحدى هذه النعم ؛ أيجد في قلبه شعور الارتياح والفرح ، أم إنه يجد عكس ذلك من الشعور بالغم ، والانتقاض ، والضيق لذلك ، ويتمنى أن لو لم تأت هذه النعم ؟ .

وقبل ذلك: ما هو الشعور لو زالت عنه هذه النعم؟؛ أهو شعور الفرح، والغبطة، والسرور، والشماتة، أو هو شعور المتألم لألمه؟، فإن كان الأول فهو الحسد بعينه، نعوذ بالله من ذلك.

إن هذا الموقف من المساءلة والمحاسبة للنفس لا بد منه إذا أردنا معالجة أمراضها، وعلينا أن نتحمل مسؤولية هذه المحاسبة، ولو كان جوابها بالاعتراف بوجود هذه الأمراض؛ لأن بداية العلاج كما سبق أن ذكرنا هي اكتشاف الداء. وأخطر من المرض نفسه أن يكون موجوداً ولا نحس بوجوده. ومعلوم أن الغل، والحقد، والشحناء، والبغضاء كل أولئك ثمرة من ثمار الحسد، ومعارضة لعلم الله عز وجل وحكمته وقدرته.

وليس أروح وأسعد للمسلم، ولا أطرد لعمومه من أن يعيش سليم القلب مبرأ من وساوس الضغينة والأحقاد؛ لا تراه إلا ويحب الخير للمسلمين. وما أسرع ما يتسرب الإيمان من القلب الغشوش، وعند ذلك لا يكون في أداء العبادة لذة، ولا خير، ولا تستفيد منها النفس تقوى ولا عصمة.

وأتوجه بهذه المناسبة بنصيحتي إلى نفسي وإخواني الدعاة أن يصلحوا ذات بينهم، ويزيلوا الشحناء من نفوسهم، وأن يتعلموا أن نعم الله عز وجل ورحمته لا ينزلان على قلوب متنافرة ومتباغضة، قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟» قالوا: بلى، قال: «إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هو الحالقة؛ لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»<sup>(١)</sup>.

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٩١٩)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١١). والحديث في صحيح سنن أبي داود (٤١١١).

وقال ﷺ : « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ، وكونوا عباد الله إخواناً »<sup>(١)</sup> .

وقال ﷺ : « تعرض الأعمال كل اثنين وخميس ؛ فيغفر الله عز وجل في ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً إلا امرؤ كانت بينه وبين أخيه شحناء ؛ فيقول اتركوا هذين حتى يصطلحا »<sup>(٢)</sup> .

وهناك رذائل كثيرة حذر منها الإسلام ، تختلف في مظاهرها ، لكنها تعود إلى علة الحسد والحقد ؛ فالكذب والافتراء على الأبرياء ، وقول الزور ، والغيبة والنميمة . . . إلخ كلها رذائل ذات مصدر واحد ، لذلك إذا أردنا التخلص من هذه الرذائل وغيرها فعلينا إصلاح قلوبنا ، فبذلك تصلح شؤوننا كلها ، ويكون لدعوتنا حينئذ دور وأثر في حياة الناس ، وإلا فما قيمة أن ندعو الناس لترك الحسد والغش والشحناء ونحن بدورنا لم نعالج نفوسنا منه ؟ ! ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُمُ عَنْهُ ﴾ [هود : ٨٨] .

ب - أمراض الشرك الخفي :

كالنفاق ، والرياء ، والعجب ، والكبر ، والغرور ، وحب الشهرة والظهور ، كل هذه الأمراض الفتاكة يكفي أن نفتش عنها وعن أشكالها الكثيرة في حياتنا ؛ لتتعرف على مدى كثرة أو قلة هذه الأمراض في قلوبنا ، وهي من الوضوح في حرمتها وخستها ، وشدة فتكها ؛ بحيث لا تطيل ونفصل فيها ، ولأن المقام مقام إشارة ، والحر تكفيه الإشارة ، ويكفي في هذا المقام أن نتعرف على معنى قوله : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦] .

قال صاحب الظلال رحمه الله تعالى :

(١) رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٤) ، ومسلم في البر (٢٥٦٣) .

(٢) رواه مسلم في البر (٢٥٦٥) .



« وحتى الذين يؤمنون ، كثير منهم يتدسس الشرك - في صورة من صوره - إلى قلوبهم ؛ فالإيمان الخالص يحتاج إلى يقظة دائمة تنفي عن القلب أولاً بأول كل خالجة شيطانية ، وكل اعتبار من اعتبارات هذه الأرض في كل حركة وكل تصرف ، لتكون كلها لله ، خالصة له دون سواه ، والإيمان الخالص يحتاج إلى حسم كامل في قضية السلطان على القلب ، وعلى التصرف والسلوك ، فلا تبقى في القلب دينونة إلا لله سبحانه ، ولا تبقى في الحياة عبودية إلا للمولى الواحد الذي لا راد لما يريد .

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ . . . مشركون قيمة من قيم هذه الأرض في تقريرهم للأحداث ، والأشياء ، والأشخاص . مشركون سبباً من الأسباب مع قدرة الله ، في النفع ، أو الضرر سواء . مشركون في الدينونة لقوة غير قوة الله من حاكم أو موجه لا يستمد من شرع الله دون سواه . مشركون في رجاء يتعلق بغير الله من عبادة على الإطلاق . مشركون في تضحية يشوبها التطلع إلى تقدير الناس . مشركون في جهاد لتحقيق نفع أو دفع ضرر ، ولكن لغير الله . مشركون في عبادة يلحظ فيها وجه مع وجه الله . لذلك يقول رسول الله ﷺ : « الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل »<sup>(١)</sup> ، وفي الأحاديث نماذج من هذا الشرك الخفي :

روى الترمذي - وحسنه - من رواية ابن عمر : « من حلف بغير الله فقد أشرك »<sup>(٢)</sup> وروى الإمام أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرقى والتمايم والتولة شرك »<sup>(٣)</sup> .  
وفي مسند الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر ، قال : قال

(١) رواه أبو يعلى (٥٨) ، (٥٩) ، (٦٠) ، (٦١) . والحديث في صحيح الجامع (٣٧٣١) .

(٢) رواه الترمذي الأيمان والنذور (١٥٣٥) ، والحاكم (١٨/١) وصححه .

(٣) رواه أبو داود في الطب (٣٨٨٣) ، وابن ماجه في الطب (٣٥٣٠) ، وأحمد (٣٨١/١) .

رسول الله ﷺ : « من علق تيممة فقد أشرك »<sup>(١)</sup>.

وعن أبي هريرة - بإسناده - قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه »<sup>(٢)</sup>.

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد بن أبي فضالة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله ، فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك »<sup>(٣)</sup>.

وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ، قال : « الرياء . يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاء الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا ؛ هل تجدون عندهم من جزاء ؟ »<sup>(٤)</sup>.

فهذا هو الشرك الخفي الذي يحتاج إلى اليقظة الدائمة للتحرز منه ليخلص الإيمان .

وهناك الشرك الواضح الظاهر ، وهو الدينونة لغير الله في شأن من شؤون الحياة ، الدينونة في شرع يتحاكم إليه - وهو نص في الشرك لا يجادل عليه - والدينونة في تقليد من التقاليد ؛ كاتخاذ أعياد ومواسم يشرعها الناس ولم يشرعها الله ، والدينونة في زي من الأزياء يخالف ما أمر الله به من

(١) رواه أحمد (١٥٦/٤) ، وهو في السلسلة الصحيحة (٤٩٢).

(٢) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٨٩٥).

(٣) رواه الترمذي في التفسير (٣١٥٢) ، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٣) ، وأحمد (٤٦٦/٣)

(٤/٢١٥) . وفي صحيح ابن ماجه : حسن (٣٣٨٨).

(٤) رواه أحمد (٤٢٨/٥ ، ٤٢٩) ، وهو في السلسلة الصحيحة (٩٥١).

الستر ، ويكشف أو يحدد العورات التي نصت شريعة الله أن تستر .  
والأمر في مثل هذه الشؤون يتجاوز منطقة الإثم والذنب بالمخالفة ،  
حين يكون طاعة وخضوعاً ودينونة لعرف اجتماعي سائد من صنع العبيد ،  
وتركاً للأمر الواضح الصادر من رب العبيد . . إنه عندئذ لا يكون ذنباً ،  
ولكنه يكون شركاً ؛ لأنه يدل على الدينونة لغير الله فيما يخالف أمر الله . .  
وهو من هذه الناحية أمر خطير . . ، ومن ثم يقول الله : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ  
بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ (١) اهـ .

#### جـ- شهوة الدنيا والركون إليها :

إن هذا المرض يعتبر من أخطر الأمراض التي بدأت تسري في حياتنا ،  
وحياة كثير من الدعاة إلى الله عز وجل وبأشكال كثيرة وأودية متشعبة قد لا  
يشعر بها ، أو يشعر بها ، ولكنها من الثقل بحيث يصعب التغلب عليها .  
وعلى أية حال ؛ فحب الدنيا ، والسعي وراءها ، وامتلاء القلب بها ،  
واستحواذها على همنا وتفكيرنا ، هو الواقع المر الذي يجب أن نعترف به إلا  
من رحم الله .

ولو وازن أحدنا بين هم الدنيا والحيز الذي تشغله من قلبه وتفكيره ،  
وبين هم الآخرة ، وهم هذا الدين لوجد أن البون شاسع والفرق كبير ،  
ولوجد أن الدعوة وأمر هذا الدين يظهر على اللسان والأعمال الظاهرة ، أما  
القلوب ؛ فلم يشغل منها إلا القليل ، وإنما الهم الأكبر فهو لهذه الدنيا  
ومتاعها الزائل ؛ كل حسب اهتمامه وواديه الذي ذهب فيه من وديانها  
وشعابها التي ذكر الله عز وجل أهمها في سورة آل عمران بقوله : ﴿ زِينِ لِلنَّاسِ  
حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ  
وَالخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالحَرثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنٌ

(١) في ظلال القرآن عند الآية ١٠٦ من سورة يوسف (باختصار).

المآب ﴿آل عمران : ١٤﴾ .

وقال تعالى في سورة التوبة : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة : ٢٤] .

وإن هذا المرض تشتد بشاعته عند أولئك الذين تصدروا للدعوة وقيادة المسلمين ، وتوجيههم ، فبالله العظيم كيف يمكن لمن ملأت الدنيا قلبه أن يدعو الناس إلى الآخرة؟! أو يتصدر الدعوة إلى الله عز وجل وقيادتهم ، وإن وجود هذه الشهوة في قلوب الدعوة إلى الله عز وجل من أكبر العوائق التي تعوق الدعوة عن تحقيق أهدافها ؛ بل تؤخرها إلى الوراء إن لم تقض عليها .

إن مرض إيثار العاجلة على الآخرة يكاد أن يطم على حياة كثير من الدعوة؛ حيث نجد أن الكثرة الكاثرة في حقل الدعوة إلى الله عز وجل تحصر انتماءها إلى الدعوة في إلقاء خطبة ، أو موعظة ، أو حضور جلسة ، أو درس أسبوعي أو شهري ثم ينصرف من ذلك بقلبه وقالبه إلى أعمال الدنيا ، والتمتع بملذاتها ، ومساكنها ، ومراكبها ، ويتوسع في ذلك بشكل يوحى إلى المتأمل فيمن هذه حاله أنه سيخلد في هذه الدنيا ، وأن ليس له ما يشغل ذهنه إلا متاعها الزائل .

أما أن يسهم في دفع الغالي والنفيس في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل ومرضاته ، والجهد في سبيله ، فأحسب أن هذا الصنف من الدعوة قليل في هذا العصر ، وصدق الرسول ﷺ : « إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة »<sup>(١)</sup> .

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩٨) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٧) .

ولا يفهم من هذا الكلام الامتناع عما أحل الله من الطيبات أو الامتناع عن التجارة ، والوظيفة ، بل كل ذلك محمود ما دامت التجارة أو الوظيفة لا تطغى على الدعوة ، وما دام الداعية يستفيد من ذلك كله في دعوته ، والتقديم لآخرته . أما أن تطغى الوظيفة والتجارة ، والدنيا بشكل عام ، على الدعوة ، والاهتمامات العالية، ويبدأ الداعية يعيش حياة التجار في ترف ، وتنعم ورفاه ، فهذا هو المذموم، وهذا هو الذي بدأ ينتشر في حياة الدعاة اليوم ، وهنا بداية الانزلاق ، وبالذات إذا كان الداعية رأساً وموجهاً في حقل الدعوة إلى الله عز وجل .

فلنتصور داعية وموجهاً يقود دعوة ، ويعتبر موجهاً لها ، ثم هو في نفس الوقت نراه من تجار الدنيا ، يبيع ويشترى ، ويشغل جسمه في النهار ، وفكره في الليل بهذه الدنيا ومتاعها ؛ إنه لا يمكن تصور ذلك أبداً ؛ فما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه .

ومثل ذلك ، هذا الداعية الموظف الذي أخذت عليه وظيفته كل وقته ؛ عملاً رسمياً في نصف النهار الأول ، ثم إضافياً في آخره ، فأين ومتى وقت الدعوة والعمل في سبيل الله عز وجل؟ ، اللهم إلا ما تبقى من الوقت في الليل ، فيأتيه وهو كالذهن ، متعب الجسد ، ويعزي نفسه بذلك ، ثم يدور الوقت هكذا ، وينصرم العمر القصير ، والهم الأكبر هو متاع الدنيا وزخرفها الفاني . والله المستعان .

أيها الإخوة في الله :

يجب أن نلتفت إلى قلوبنا ، وأن نتحسس هذه الأمراض فيها ، وكيف نعالجها . يجب أن يسأل كل منا نفسه : كم من الأقوال والأعمال التي كان يدعو الناس إليها وهي تخالف ما في قلبه ؟ ، يجب أن نحذر من قوله

تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٧] ، في الوقت الذي يتصور الناس عن هذا الداعية أنه من أحسن الدعاة خلقاً وعبادة ، والحالة ليست كذلك ؛ فالقلوب القلوب ؛ عناية وإصلاحاً ومعالجة أمراضها التي تعد أخطر الأمراض وأشدّها فتكاً .

والآن وبعد الحديث عن أصل المثالب والمساوئ وهي القلوب ، نستعرض بعض المثالب السلوكية ، التي يكثر انتشارها في أوساط الطيبين من الدعاة ، فضلاً عن عامة الناس ودهماتهم .

## ٢. المخالفات في الهدي الظاهر :

يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

والتأسي بالرسول ﷺ يشمل شئون حياته كلها وأحواله كلها الظاهرة والباطنة ، وأول من يخاطب بهذا التوجيه الدعاة إلى الله عز وجل ، والذين هم بدورهم يوجهون الناس إلى العمل بمقتضى هذه الآية .

ولكن مع ذلك في حياتنا كثير من التساهل في التأسي به ﷺ ، فمن هذه المخالفات في الهدي الظاهر : التساهل في إعفاء اللحية وإكرامها ، أو قص الشارب أو حفه أو في بقية خصال الفطرة ، وكذلك في اللباس والهيئة ، والمسكن ، والمأكل ، والمركب . . . إلخ .

كل هذه الأمور قد يحصل التساهل فيها ، ويقع البعض في الإسراف المحرم ، والمخيلة ، وحب الشهرة ، وليس هنا موضع التفصيل وضرب الأمثلة ؛ فكل إنسان أعلم بنفسه وحاله .

وقد نجد من يقول عند الحديث حول هذه المخالفات : إنها من القشور ،

وينبغي أن نهتم باللب . . . إلخ .

وهذا القول في نظري خاطئ ، ومنحرف ، وغريب على معنى الاستسلام لله عز وجل وشرعه ، فليس في الدين قشور ولباب ، وإنما هو لحمة واحدة ، والاستسلام لله عز وجل في الصغير كالاستسلام له في الكبير .

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٨] .

### ٣- منكرات البيوت :

يوجد من الدعاة إلى الله عز وجل من يتساهل في أمور البيوت ، ومقتنياتهما ، فلا يحكم فيها بشرع الله عز وجل ، وهو الداعية المتصدر لإرشاد الناس وتوجيههم .

\* فنجد مثلاً من يتساهل في إبقاء التلفاز مع ما فيه من شر مستطير ، وإثم كبير يغضب رب العالمين ، فبالله كيف يقدم على ذلك داعية يخاف حساب الله عز وجل ويرجو ثوابه ، ويريد هداية الناس .

كيف يطاوع نفسه الأمانة ، أو يطاوع أهله وأولاده في الإبقاء على هذا المنكر ؟ ثم بعد ذلك يدعو الناس ويرشدهم ، بل كيف سيقبل الناس دعوة من يناقض نفسه بنفسه ؟ .

والأخطر من ذلك تضليل الناس ودهمائمهم ، وتجبيل هذا المنكر لهم بحجة التأسّي بهذا الداعية ، ولو كان منكراً لما أبقاءه فلان وفلان من الدعاة وطلبة العلم !! .

\* ومن منكرات البيوت أيضاً : والتي يحصل التساهل والترخص فيها وجود الخدم الأجانب والخدمات الأجنبية الحرائر ، ووجود السائقين الذي يخلون بالمحارم من البنات والأخوات والزوجات ، ومعلوم ما في هذا من المخالفة لشرع الله جهاً نهاراً ، وكل هذه المنكرات لا تحتاج إلى مناقشة وتدليل على حرمتها لوضوح ذلك وبيانه ، ومع ذلك يحصل الترخص من بعض الطيبين في ذلك ، ويرضخ للأمر الواقع على حد زعمهم ، وتنتشر مثل هذه المخالفات في البيئات المترفة المنعمة دون التقيد بالضوابط الشرعية في ذلك .

\* ومن منكرات البيوت أيضاً : التساهل في صور ذوات الأرواح حتى أصبح ذلك الأمر طبيعياً في حياة الناس - دعاتهم وعوامهم - إلا من رحم الله ، ويتمثل ذلك في إدخال المجلات المصورة ومجلات الأزياء والمجلات النسائية . . . إلخ ، بحجج واهية لا تسمن ولا تغني من جوع .

\* ومن منكرات البيوت أيضاً : التساهل في حشمة النساء داخل المنزل ، خاصة إذا وجد أكثر من عائلة ، وكان هناك مجال للاختلاط ، كما يحصل نوع من التبرج المقصود أو غير المقصود عند الخروج من المنزل ، كما أن هناك من يترخص ويتوسع في أدوات الزينة والتجميل ؛ مما قد يكون بعضه محرماً ، وولي الأمر في غفلة من هذا ، أو في تغافل عنه .

#### ٤- إهمال تربية الأهل والأولاد :

يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] .



وهذه الفقرة متعلقة أو مرتبطة بما قبلها ؛ بل إن الملاحظة السابقة ثمرة من ثمار الإهمال والتساهل في تربية الأهل والأولاد ، ومعلوم أن أولى الناس بالمعروف والدعوة ، هم أهل الإنسان وخاصته ، ولكن - وللأسف - نجد التساهل الشديد في هذا الأمر عند الكثير منا .

ومن مظاهر هذا التساهل ؛ أن نرى الداعية نشيطاً ومتحركاً في الخارج ، في جميع المجالات ، بينما لا ينعم أهله ومن استرعاه الله عليهم برؤيته إلا قليلاً ، وتراهم يجهلون كثيراً من أحكام الدين الأساسية ، وقد يقعون في بعض المحظورات والمنهيات ، فلا يهتم بهم ولا يأمرهم وينهاهم ، بل لا يتفقد أحوالهم ليعلم وقوعها منهم ؛ لأنه لا يجد الوقت الذي يجلس معهم فيه ليعلمهم ويربيهم .

أليس من المؤسف له أن يوجد في بيوت كثير من الدعاة من الأهل والأولاد من لا يعرف كيف يتوضأ أو كيف يصلي؟ أو يجهلون أحكام الصيام وكثيراً من فروض العين الواجب على كل مسلم بعينه أن يتعلمها؟ ؛ قال رسول الله ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ؛ فالإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيته ، والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته » قال الرواي وهو عبد الله بن عمر : فسمعت هؤلاء من النبي ﷺ ، وأحسب النبي ﷺ قال : « والرجل في مال أبيه راع ومسؤول عن رعيته ؛ فكلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته »<sup>(١)</sup> .

وهناك معالجات خاطئة لحقوق الزوجة والأولاد بين الإفراط والتفريط ؛

(١) متفق عليه .

فقد يوجد من يهمل أهله ، وبيته بحجة الدعوة إلى الله عز وجل ، والتضحية في سبيله ، كما يوجد في الطرف الثاني من يهمل أمور الدعوة ، وطلب العلم والجهاد ، بحجة حقوق الزوجة والأولاد ؛ فلا تجده إلا وهو يدور في فلکهم وطلباتهم ، والموفق من وفقه الله عز وجل في هذا الأمر وبأن أعطي كل ذي حق حقه ، والوسطية سمة من سمات هذا الدين العظيم .

#### ٥- التفريط في حقوق الوالدين وصلة الأرحام وحقوق الجار :

قال الله تعالى : ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنْبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا﴾ [النساء : ٣٦] .

إن هذه الحقوق قد تساهل فيها كثير من الطيبين ، مع المعرفة بها وبفرضيتها ، وبالذات حقوق الوالدين التي تأتي بعد الأمر بتوحيد الله عز وجل ، وما بعد الشرك بالله عز وجل ذنب أشد من عقوق الوالدين ، ومع ذلك فهناك تفريط في هذا الحق ، وبالأخص حق الأم ، والمقام هنا ليس مقام تفصيل وتدليل ؛ إنما المراد التذكير والإشارة إلى ضرورة الانتباه إلى هذا الواجب العظيم ، وألا يفريط فيه بحجة أو بأخرى .

ومن أمثلة التساهل في هذه الحقوق التقصير في خدمة الوالدين ، وتلبية طلباتهم ، وتقديم النوافل على طاعتهم الواجبة ، ومن ذلك أيضاً عدم التلطف معهم ، وخفض الجناح لهم والصبر عليهم ، وتفقد أحوالهم ، وما يطرأ عليهم في الكبر ، وتقديم رضا الآخرين عليهم . . . إلخ .

وهناك أمثلة أخرى من التفريط لا يتسع لها المقام ، وكل هذا مع الأسف

يصدر من بعض الدعاة الذين يحضون في دعوتهم على بر الوالدين ، والقيام بحقوقهم ، فليت شعري كيف يستقيم الظل والعود أعوج !!  
ومن الحقوق المتساهل فيها أيضاً : حقوق الأقارب ، وصلة الأرحام ، وعدم زيارتهم ومواساتهم ، وتفقد أحوالهم ، وخدمتهم عند الحاجة ، وذلك من الأخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات ونحوهم .  
ومن الحقوق التي يحصل التفريط فيها أيضاً : حقوق الجار ، وعدم الإحسان إليه ، بل يتعدى الأمر إلى الإيذاء والمضايقة والهجران .

#### ٦- التساهل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

هناك من الدعاة من يهون من شأن هذا الأمر ، وأنه ترقيع وتضييع للجهود ، ومعلوم ما في هذا القول من خطر ، وفتح الباب للفساد ، وترك المفسدين ليفسدوا في الأرض ، والله تعالى يقول : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].  
فياليت أن مثل هذا الصنف من الناس لهم جهود أخرى في الدعوة والتعليم والتوجيه ، ليعذروا في تركهم هذا الواجب العظيم ، وياليتهم إذ عجزوا عن هذه الشعيرة العظيمة تركوا غيرهم ليسدها .

#### ٧- التساهل في صلاة الجماعة :

ويظهر ذلك في التأخر عنها وعدم التبكير لها ، وإدراك الصف الأول ، وتكبيرة الإحرام ، بل قد تفوت الصلاة كلها أو بعضها بغير عذر شرعي ، وخاصة صلاة الفجر والعصر ، واللذان هما من أفضل الصلوات ، بل إن ظاهرة تأخر الطيبين عن الصلاة بدأت تلاحظ في كثير من المساجد ، وأصبح

بعض العوام يشهرون ويتندرون ، بأن الذين يقضون بعد الصلاة ، من بينهم كثير من الطيبين الملتحين !! .

### ٨- التفريط في طلب العلم والتفقه في الدين :

يكتفي كثير من الطيبين بالتقليد ، والتنف من العلم : كالاكتفاء بالرسائل الصغيرة ، والأشرطة المسجلة ، والخطب ، والمحاضرات ، وكل هذه الأمور طيبة ، وضرورية ، خاصة وتلك التي يغلب عليها الوعظ والتذكير ، أما الدروس العلمية والكتب العلمية المؤصلة فتضعف النفس إزاءها ، ولا يوجد الجلد والصبر على قراءتها وملازمة العلماء ، رغم كثرة الكتب ، وتوفرها وتفنتها ، ورغم توفر الدروس والعلماء وطلاب العلم ووجود الفراغ الذي لم يستثمر ، وإنما يضيع في ما لا ينفع في أكثر الأحيان ، ومعلوم ما للعلم من دور كبير في معرفة الحق ، واستنارة الطريق ، والدعوة إلى الله عز وجل على بصيرة .

### ٩- آفات اللسان :

وهي كثيرة ومتنوعة ولا يكاد يخلو منها مسلم إلا من رحم الله تعالى ، وأعان على نفسه وشيطانه ، فمن هذه الآفات :

\* تساهل الكثير من الطيبين في صدق الحديث والوقوع في ضده ؛ وهو الكذب والخداع والمراوغة ، وأكثر الأحيان لا يوجد مبرر لذلك . ومن المؤسف له أننا نعلم حرمة هذه المخالفات وعدم شرعيتها ، فكيف يتصور وقوع هذه المحرمات من دعاة يرجون النصر من الله عز وجل على أعدائهم؟! .

\* ومن آفات اللسان أيضاً : الغيبة ، والنميمة ، واللمز ، والهمز ،

واللغو ، والسخرية ، وكل هذه الآفات قد جاء الإسلام بتحريمها ، ومع ذلك يترخص الكثير فيها بمبرر أحياناً وبدون مبرر أحياناً كثيرة ، والجدير بالذكر هنا أنه لا ينقصنا معرفة حرمة هذه المنهيات ؛ فكم قرأنا في كتاب الله عز وجل وفي سنة رسوله ﷺ عن التحذير منها ، ومع ذلك لم يحصل الارتداع والانتها ، فما السر في ذلك ؟ ! .

السر في ذلك - والله أعلم - هو ما ذكرته آنفاً في مقدمة الموضوع عن أمراض القلوب ، وأنها أساس الأمراض كلها ، فما لم نصلح أمراض قلوبنا ، ونظهرها من الحسد وحب الترفع عن الناس والكبر . . . إلخ ، فإننا لن نستطيع الإقلاع عن هذه المساوئ من الأخلاق ، مهما قرأنا وعلمنا ؛ فلا يصلح الغصن والجذر فاسد .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - كلام نفيس حول دوافع الغيبة ، يرجعها إلى فساد القلوب ، فتراه يقول رحمه الله تعالى (ج ٢٨ ص ٢٣٦ - ٢٣٨) (باختصار) :

« \* من الناس من يغتاب موافقةً لجلسائه وأصحابه وعشائره ، مع علمه أن المغتاب بريء مما يقولون ، أو فيه بعض ما يقولون ، لكن يرى أنه لو أنكر عليهم لقطع المجلس ، واستثقله أهل المجلس ونفروا عنه .

\* ومنهم من يخرج الغيبة في قوالب شتى : تارة في قالب ديانة وصلاح ، ويقول : ليس لي عادة أن أذكر أحداً إلا بخير ، ولا أحب الغيبة والكذب ، وإنما أخبركم بأحواله ، ويقول : والله إنه مسكين ورجل جيد ولكن فيه كيت وكيت ، وربما يقول : دعونا منه ، الله يغفر لنا وله ، وقصده من ذلك استنقاصه .

\* ومنهم من يحمله الحسد على الغيبة ؛ فيجمع بين أمرين قبيحين :  
الغيبة والحسد .

\* ومنهم من يخرج الغيبة في قالب تمسخر ولعب ؛ ليضحك غيره  
باستهزائه ومحاكاته واستصغار المستهزأ به .

\* ومنهم من يخرج الغيبة في قالب التعجب فيقول : تعجب من فلان  
كيف لا يفعل كيت وكيت؟! ، ومن فلان كيف وقع منه كيت وكيت؟! .

\* ومنهم من يخرج الاغتمام ، فيقول : مسكين فلان غمني ما جرى  
له ، وما تم له ، فيظن من سمعه أنه يغتم له ، ويتأسف ، وقلبه منطو على  
التشفي به ، ولو قدر لزيد على ما به .

\* ومنهم من يظهر الغيبة في قالب غضب وإنكار منكر وقصده غير ما  
أظهر<sup>(١)</sup> اهـ باختصار .

\* ومن آفات اللسان : الفحش والبذاءة في القول ، خاصة عند الخصومة  
والجدال ، فقد يوجد داعية طيب حسن المعتقد ذو همة في دعوته ، ولكن ما  
إن يحصل بينه وبين أحد خصومة أو جدل ، حتى ينقلب إلى وحش كاسر قد  
اشتد غضبه ، وارتفع صوته ، وسفه عقل مخاصمه ، وبالتالي يفجر في  
خصومته ، والرسول ﷺ قد عد الفجور في الخصومة من خصال المنافق ،  
وبين لنا أن المؤمن ليس بالسباب ولا اللعان ، ولا الفاحش البذيء .

#### ١٠- التفريط في غض البصر :

وهذه السيئة لا يكاد يخلو منها أحد إلا من رحم الله ، وجاهد نفسه

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/٢٣٦-٢٣٨).

وهواه . والناس فيها بين مقل ومكثر ؛ فالنظر إلى النساء الأجنبية وإلى صورهن في الأفلام أو المجلات والصحف ؛ كل هذا قد جاءت الشريعة بتحريمه ، إلا نظرة الفجاءة الأولى ، ويكفي في ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ [النور : ٣٠] .

والمطلوب منا في هذا الأمر أن نبذل أسباب الوقاية من ذلك ؛ فيجاهد المسلم نفسه ألا يعرض نفسه لمواطن النساء قدر ما يستطيع : كالأسواق والحدائق والمطارات والأسفار . . . إلخ ، وأن يعمل جاهداً - كما سبق أن أشرنا إليه في منكرات البيوت - في منع دخول بيته المجلات والأفلام والصحف ، التي تتخذ المرأة سلعة رخيصة للدعاية وجلب الأنظار ، والله المستعان .

### ١١- الرضى من النفس بالدون :

يوجد من الطيبين من يحقر نفسه ، حتى يحط من قدرها وهمتها ، وأنها ليست على مستوى طلاب العلم ، والدعاة إلى الله عز وجل ؛ وهذا مدخل شيطاني دقيق ؛ لأن الشيطان حريص على تخذيل الإنسان وتحطيم همته ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان : ٢٩] .

فيجب أن ننتبه لهذا الأمر ، ونرتفع بأنفسنا إلى مستوى إسلامنا وإلى المهام العليا ، وفرق بين قوة النفس والهمة العالية وبين الغرور والعجب ، كما أن هناك فرقاً بين التواضع المحمود وبين الدونية الممقوتة ، ويكفي أن يكون قدوتنا في ذلك عباد الرحمن الذين قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤] .

فهم يسألون الله عز وجل أن يجعلهم أئمة وقادة وقدوة للمتقين ، وليسوا

من المتقين فحسب ، فما أعظمها من همة .

### ١٢- السفر إلى بلاد الكفر والفساد لغير ضرورة:

ويقع في هذه المخالفة بعض الطيبين من الدعاة، بحجة السياحة واستطلاع أحوال الأعداء!، وحضور بعض المنتديات أو المعارض والمؤتمرات، التي لا تكافئ مصلحة حضورها المفسدة الناجمة عنها؛ إذ إنها من باب الكماليات وليست من الضروريات ولا الحاجيات، ومما يزيد الأمر سوءاً تساهل هؤلاء الطيبين باصطحاب أهليهم وأولادهم، وهذا مما يزيد الطين بلة؛ حيث يتحمل وزر نفسه ووزر من سافر معه، والجميع يعرف ما في بلاد الكفر، ودول الفساد من الفتن، والمفاسد العظيمة التي تؤثر في الدين، والأخلاق. والمسلم مطلوب منه أن يفر بدينه من الفتن لا أن يفر بدينه إلى الفتن.

### ١٣- التهوين من شأن العلماء والدعاة والحط من قدرهم:

ويصدر هذا العمل المشين من بعض الطيبين المتعجلين أو المتعصبين، وذلك عندما يقع بعض العلماء أو الدعاة في بعض الأخطاء التي صدرت منهم اجتهاداً أو ضعفاً؛ مما يؤدي إلى انتقادهم، والتشهير بأخطائهم من قبل هؤلاء المتعصبين.

ومن المعلوم أن غيبة العلماء والتهوين من قدرهم - بسبب خطأ ارتكبه - فيه فتنة وخطر كبير؛ لأن أهل الشر والفساد يستغلون مثل ذلك للنيل من علماء الإسلام، وتوهين الارتباط بينهم وبين عامة الناس، وبالتالي فإن هذا يمهّد للنيل من الإسلام نفسه.



وفرق بين النصيحة للعالم ومعالجة الخطأ الصادر منه ، وفهم المبررات والملاسات التي أدت إلى ذلك ، والاعتذار له بعد ذلك ؛ فرق بين هذا وبين التشهير به ، والنيل من عرضه ؛ فلعوم العلماء مسمومة (كما يقال) .

وعندما نذكر العلماء والدعاة في هذا الصدد نقصد أولئك العلماء المخلصين ؛ حيث إنهم صمام الأمان لأمتهم ، وإذا ذهب العلماء ، وذهبت هيبتهم ذهب الدين تبعاً لذلك . أما علماء السوء ، وكل منافق عليم اللسان ، فلا يدافع عنه ولا كرامة ؛ لأنه قد عرض نفسه للتهم والشبهات ، ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه .

والحديث عن العلماء يجرنا إلى الحديث عن الدعاة المخلصين ؛ حيث يوجد من يهون من شأنهم وجهدهم وتراثهم وفكرهم ، لا لشيء إلا أنه خالفه في الأسلوب أو الطريقة أو أنه ليس من طائفته ، وفي هذا بخس للناس في أسيئتهم ، وفيه لوثة الكبر والعجب . فكأن ليس في الساحة الدعوية إلا هو ومن حوله ، وليس من يؤلف ويكتب ويفهم الأمور إلا هو ، أما الآخرون فهم أقل من ذلك ، وإن وجد من يؤلف أو يقوم بدور دعوي ، فإنه يغمض عينه عن ذلك ، أو يشكك في مقاصدهم . . إلى غير ذلك من الظلم والعدوان .

ولو كانت القلوب سليمة نقية لحصل العكس ؛ ألا وهو الفرح بدعوة الدعاة الآخرين وجهودهم ؛ فالداعية المخلص يفرح بذلك ويرى أن الدعاة يكمل بعضهم بعضاً ، والداعية الصادق يذكر لأهل الفضل فضلهم وخيرهم وبلاءهم ، والداعية الناصح يسعى لإقامة التعاون بين الدعاة ، ويسعى لوحدة الصف واجتماع الكلمة ، وإن تعذر فلا أقل من أن يحب بعضهم

بعضاً ، وأن يثني بعضهم على ما يرى عند البعض من خير ، وسلامة منهج ، ونظافة سلوك ، وهذا كله من مقتضيات الولاء ، ومن لوازم العدل والإنصاف .

#### ١٤- الحزبية المقيتة :

وهذه السيئة متعلقة بما قبلها ؛ بل هي سبب لها . ومنع هذه الخلة المذمومة تلوث معنى الولاء في القلب ، فبذل أن يبذل الولاء لكل مسلم صحيح المعتقد ، نرى أنه يوجه لأفراد الحزب أو الطائفة أو القوم الذين هو منهم ، فلا يحب ولا يبغض إلا على أساسهم ، ولا ينظر إلا بمنظارهم .

وواضح ما في هذا من انحراف وتخبط ، يتحمل وزره ، ويؤء بإثمه من تلبس به ، ومن ربي غيره عليه ، فأصل الموالاتة والمعاداة في الإسلام على العقيدة ؛ فكل مسلم صحيح الإيمان يجب أن يبذل له من المحبة والموالاتة بغض النظر عن جنسه ولونه أو لغته ، وصاحب العقيدة الصحيحة من أهل السنة والجماعة ، والمتخلق بأخلاق السلف ، يجب أن يبذل له الولاء التام الكامل .

أما المسلم المقدوح في عقيدته أو سلوكه - لكن لا تصل هذه القوادح إلى حد الكفر - فمثل هذا يبذل له الولاء العام المكافئ لما فيه من الإيمان والخير ، ويتبرأ من بدعته ، وخلقه المشين . أما الذي ينتفي عنه الولاء بالكلية ، ولا يجوز في حقه إلا البراءة التامة ، فهو الكافر والمنافق نفاقاً اعتقادياً ظهرت عليه علاماته .

#### ١٥- إهمال كتاب الله عز وجل قراءة وتدبراً :

هناك تقصير ملاحظ في حق كتاب الله عز وجل ، والذي قال الله عز وجل

عنه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿ [يونس : ٥٧ ، ٥٨] .

ومن مظاهر هذا التقصير هجر قراءته ، إلا في أوقات متباعدة ، وهجر تدبره وتعاهده ، والعمل به ، وقد يبرر هذا الانشغال بأموال الدعوة ، أو القراءة في كتب العلم الأخرى ، وقد يمر على الداعية يوم أو يومان أو أكثر ، وما قرأ فيها من كتاب الله عز وجل شيئاً ، وإن قرأ فبدون تدبر وخشوع ؛ بل يقرأ أحدنا القرآن وهو متلبس ببعض المنهيات التي نهى عنها القرآن ، أو تاركاً لبعض الواجبات التي أمر بها القرآن ، والإصرار على ذلك ؛ كمن يقع منه الكذب والغيبة والنميمة والظلم والعدوان وإطلاق البصر وقطيعة الرحم والحسد والرياء . . . إلخ .

وما كان هذا هو منهج السلف في قراءتهم للقرآن وتلقيهم لأحكامه ؛ بل المعروف عنهم أنهم كانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يفهموها ، ويعملوا بها ؛ فيتعلمون العلم والعمل ، وجاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في وصف حالة السلف مع القرآن ، ووصف من بعدهم قوله : « كنا نؤتى الإيمان قبل القرآن ، فيقرأ أحدنا القرآن فيقف عند زاجره وأمره ، وحلاله وحرامه . ولقد أدركت أناساً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان ، فيقرأ أحدهم القرآن من فاتحته إلى خاتمته لا يقف عند زاجره ولا أمره » ، أو كما قال رضي الله تعالى عنه .

إذن كان السلف رحمهم الله تعالى يقرءون القرآن ، وقد امتلأت قلوبهم بالإيمان ؛ فيكون لكلام الله عز وجل أثر في حياتهم وسلوكهم ، أما من أوتي

القرآن والقلب خاوياً من الإيمان ؛ فإنه يقرأ القرآن والقلب مشحون ، ومملوء بشهوات الدنيا ، ومتفرق في شعابها ، وقد يكون حافظاً للقرآن ، ويقرؤه بتجويد وصوت حسن لكن بدون تدبر وخشوع وعمل . وأكبر دليل على ذلك أن كثيراً منا يقرأ القرآن من جلده إلى جلده دون أن تقطر عينه من خشية الله وسماع كلامه عز وجل .

#### ١٦- التفريط في كسب المال الحلال :

إن هناك تساهلاً كبيراً عند بعض الدعاة ، في تحري الحلال والطيبات من الرزق ، في الوقت الذي ينبغي فيه الحذر الشديد من جراء التساهل في هذا الأمر ، وخاصة في عصرنا اليوم ، والذي عز فيه المكسب الحلال لكثرة الشبه ، وانفتاح كثير من أبواب الربا ، والبيوع المحرمة ، وغموض كثير من المعاملات التجارية ، مع ما يصاحبها من قلة إيمان وضعف نفس .

ويتمثل هذا التساهل ، إما في عين المال المكتسب في بعض التجارات المشبوهة ، والتي لا يمكن الحصول عليها إلا بالوقوع في الحرام أو شبه الحرام أو يتمثل هذا التساهل أيضاً في طريقة الكسب ؛ كالتقصير في إتقان الوظيفة أو المهمة المسندة لصاحبها ؛ سواء في ضبط دوامها أو تضييع الوقت أثناءها ، أو الاستفادة من الوظيفة وخدماتها في الأغراض الشخصية .

كما يظهر التساهل أيضاً في الترخيص في مصاحبة من لا خلاق له من تجار الدنيا ، ومداومة الجلوس معهم ومداهنتهم ، وبالذات إذا كانت المعاملة مع غير المسلمين ! .

#### ١٧- الجبن والبخل :

إن هذين الخلقين الذميين قد أكثر الرسول ﷺ من التعوذ منهما في أكثر

من دعاء ، فقال : « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل ، والجبن والبخل ، وضلع الدين وغلبة الرجال »<sup>(١)</sup> ، وقال : « اللهم إني أعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من أن أزدل إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وعذاب القبر »<sup>(٢)</sup> .

وقد يظهر الجبن والبخل على اللسان ، وقد لا يظهران إلا عند المواقف التي تتطلب الشجاعة والكرم ، وهذان الخلقان لا يجوز أن يجتمعا عند داعية ، مع العلم أنه قلما يوجد أحد هذين الخلقين عند شخص إلا ويوجد معه الخلق الآخر ، وغالباً ما يكون البخيل جباناً ، والجبان بخيلاً ؛ لأن الشح يجمعهما ؛ فالجبان شح بنفسه ، والبخيل شح بماله ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩] .

وإن داعية فيه هاتان الخلتان الذميتان ، لا يصلح لدعوة فيها بذل وتضحية ؛ لأن الدعوة إلى الله عز وجل تتطلب التضحية بالمال والنفس .

ولما جاء وفد إلى رسول الله ﷺ وهو وفد بني سلمة من الأنصار ، قال لهم الرسول ﷺ : « من سيدكم يا بني سلمة ؟ قالوا : الجد بن قيس على أنا نبخله ، فقال بيده هكذا ، ومد يده ، وأي داء أدوأ من البخل ، بل سيدكم عمرو بن الجموح »<sup>(٣)</sup> .

فمن هذه القصة نرى أن الرسول ﷺ لم يرض لمن يسود الناس أن يكون بخيلاً .

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٦٩) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٦) .

(٢) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٧٤) .

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد ، وصححه الألباني - صحيح الأدب المفرد (٢٢٧/٢٩٦) ،

وانظر : الإصابة - ترجمة عمرو بن الجموح .

وقد يظهر شخص ما أنه سالم من هاتين الصفتين ، والحقيقة غير ذلك لأنه لم تأت المواقف التي توضح وجودهما من عدمهما .  
وهناك موقفان يبتلي الله عز وجل بهما عباده المؤمنين ليعلم من يثبت من يزل ويزيغ ؛ ألا وهما : موقفا الخوف والطمع ؛ فموقف الخوف يظهر الجبن والشجاعة ، وموقف الطمع يظهر البخل والشح ، وإيثار الحياة الدنيا ، من غير ذلك .

ولقد ابتلى الله عز وجل بهذين الموقفين بني إسرائيل فسقطوا ؛ ابتلاهم بالخوف عندما أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة فنكلوا وجبنوا ، وقالوا : ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ [المائدة : ٢٢] .

وابتلاهم الله عز وجل بالطمع فحجز الحيتان عنهم إلا يوم السبت ، فما صبروا على شهواتهم ، بل خارت نفوسهم ، وانساقوا مع شهواتهم .  
وابتلى الله عز وجل أصحاب محمد ﷺ بالخوف والطمع فنجحوا واستعلوا عليهما ، فقالوا للرسول ﷺ عندما استشارهم في غزوة بدر : « والله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك » .

ومدحهم الله عز وجل في أعقاب غزوة أحد بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

وقال عنهم يوم الأحزاب : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٢] ، ثم ابتلاهم الله عز وجل بالدنيا وانفتاحها عليهم ؛ فاستعلوا عليها وزهدوا فيها ورضوا بالكفاف .

إذن ؛ إذا أردنا أن نكشف وجود هذين الداءين في نفوسنا من عدمهما

فلتتقدما عند موقفي الخوف والطمع ، وإن هذا لا يعني أن نتعمد مواطن الخوف والطمع ؛ كلا ، فالمطلوب من المسلم أن يفر بنفسه من مواطن الفتن ؛ لأنه لا يدري ما ستكون حاله حينئذ ، وكما قال الرسول ﷺ : « لا تمنوا لقاء العدو ، وإذا لقيتموهم فاصبروا »<sup>(١)</sup> .

وثمة مسألة أخيرة تتعلق بهذا الموضوع ؛ ألا وهي : وقوع بعض الطيبين في الحب المفرط لنفسه ومصالحها ، مما قد يؤدي به إلى الأنانية والأثرة الممقوتة ، وإن هذه الصفة الذميمة لها نتائج وخيمة ، ومن أبرز هذه النتائج : وقوع صاحبها في الشح والجبن المشار إليهما سابقاً ، ووقوعه أيضاً في ضعف الهمة وخور العزيمة ، وضعف النفس ودناءتها ، وإذلالها للغير في سبيل تحقيق مصلحة ، أو دفع مفسدة عنها .

ومن نتائج حب الذات المفرط أيضاً : العجب ، والغرور ، والأنانية ، وقلة المروءة ، وحب الظهور والمدح ، وإهمال حقوق الأخوة وحقوق الآخرين ، وعدم المسارعة في خدمة المسلمين وإعانتهم على حوائجهم . . . إلخ .

#### ١٨- نقل الأخبار دون تمحيص وثبت :

لقد ابتلي بهذه الصفة كثير من الطيبين ؛ حيث تراه يحدث بكل ما سمع دون تثبت ولا تمحيص ، وقد يكون ما سمعه لا أصل له ، وقد يكون مزاداً عليه ، وقد ينقله دون فهم ووعي لمراد المتكلم به ، وقد ينقله بعبارة يفهم السامع الآخر منها غير المراد ، ومعلوم ما ينتج من ذلك كله من إذكاء الشائعات ، والوقوع في الكذب ، وسوء الظن ، والعدوان على الناس بغير حق . يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

(١) رواه البخاري في الجهاد (٣٠٢٥) ، (٣٠٢٦) ، ومسلم في الجهاد (١٧٤١) ، (١٧٤٢) .

## ١٩. التصدر للتدريس والجرأة على الفتوى بلا علم :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]. ومع ذلك يوجد في بعض الدعاة، من لا يتردد في إفتاء الناس عما يسألون، بشبهة علم أو بغير علم أصلاً، أو أن يتصدر للتدريس في فن من الفنون قبل أن تجتمع عنده الآلة في ذلك ، كل ذلك سببه مرض في القلب ؛ وهذا المرض هو حب الشهرة والظهور بمظهر العالم الواعي الذي حوى من كل علم بنصيب ، ولا يريد أن يتصف بالجهل ، ومعلوم ما في هذا من الإثم والمنقصة في الدين ، وفي النهاية يجازى بنقيض قصده؛ وهو استنقاص الناس له ومقتهم له وعدم الثقة به وبعلمه .

## ٢٠. الغلظة والفظاظة :

يقول الله تعالى : ﴿ ... وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

قال سيد قطب رحمه الله حول ظلال هذه الآية :

« فالناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة ، وإلى ود يسعهم ، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم ... في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ، ولا يحتاج منهم إلى عطاء ، ويحمل همومهم ، ولا يعينهم بهمهم ، ويجدون عنده دائماً الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضاء ... »

وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ ، وهكذا كانت حياته مع الناس ؛ ما غضب لنفسه قط ، ولا ضاق صدره بضعفهم البشري ، ولا احتجز لنفسه شيئاً من أعراض هذه الحياة ، بل أعطاهم كل ما ملكت يده في سماحة



ندية، ووسعهم حلمه وبره وعطفه ووده الكريم، وما من واحد منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه، نتيجة لما أفاض عليه ﷺ من نفسه الكبيرة الرحبية»<sup>(١)</sup> اهـ .

هذه هي صفات نبينا محمد ﷺ الذي أمرنا الله عز وجل بالتأسي به ، واقتفاء أثره ، وهي نموذج لكل داعية يريد دعوة الناس إلى الخير ، ويحببهم فيه ، ولكن مع ذلك بعضنا يفرط في هذه الصفات ، ويصدر منه من المواقف والتصرفات ما ينم عن الغلظة ، والفظاظة ، وعدم الحلم ، وسعة الصدر ، متمثلاً في تقطيب الوجه ، وانقباض النفس ، والتعنيف على الأخطاء ، وفقدان الرفق والأناة ، ومعلوم ما ينتج عن ذلك من نفرة الناس وكرههم لمن هذه أخلاقه ، فوق ما في ذلك من الإثم وحرمان الأجر .

قال الرسول ﷺ : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق »<sup>(٢)</sup> .

وثمة شيء آخر يتعلق بهذا الموضوع ألا وهو ما درج عليه بعض المرين والموجهين من الدعاة من القسوة على من معهم ، وتربيتهم على التقليد الأعمى ، وعدم السماح لهم بإبداء آرائهم ، ومعارضتهم ، وقفل باب التشاور معهم .

وهذه الطريقة الخاطئة من التربية ، تفرز لنا دعاة مقلدين متعصبين منفذين لما يقال لهم بدون بصيرة ، وهذه في الحقيقة تربية عبيد لا تربية قادة ، وهذا يخالف قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

\* \* \*

(١) في ظلال القرآن ، عند الآية ١٥٩ من سورة آل عمران .

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٦) .

## الخانمة

في ختام هذا الموضوع أود التنبيه إلى الملاحظات التالية :

١- لم أراع - في ترتيب الملاحظات السلوكية في هذا البحث - الأولوية والأهمية ، إلا فيما يتعلق بأمراض القلوب باعتبارها أخطر الأمراض ، فاحتلت الرقم الأول على بقية الملاحظات لأهميتها وشدة خطرها ، أما ما تم سرده بعد ذلك فلم يكن حسب الأهمية ، بل كلما عن للخاطر ملاحظة دونتها ، وقد يكون ما بعدها أخطر منها ، وهكذا .

٢- إن ما تم طرحه من المساوي السلوكية والقلبية هو على سبيل المثال من الواقع العملي ، وليس على سبيل الحصر ، وإلا لورجع كل منا إلى نفسه أو ما يشاهد من حوله لوجد أكثر مما طرح في هذا الموضوع . ولما كان هدف هذه الدراسة هو التنبيه على خطر هذه الأمراض وخطر نسيان النفس في زحمة الدعوة للآخرين - لما كان الأمر كذلك - اكتفيت بذكر نماذج من هذه القوادح ؛ لعلها تكون حافزاً لنا ، لتوجيه الدعوة والتربية إلى أنفسنا في الوقت الذي نوجهها لغيرنا ، كما أرجو أن يكون هذا الموضوع حافزاً لأهل الخير والصلاح وأرباب التربية والتوجيه إلى الاعتناء بمثل هذه المواضيع توجيهاً وكتابة ونصحاً .

٣- لعل مما يلاحظ على هذا الموضوع أنه لم يتطرق للقوادح التصورية والعقدية المنتشرة عند بعض الدعاة ، ولكن تعمدت ترك ذلك ؛ لأن المقصود بهذا البحث الذين يفترض فيهم صحة المعتقد وسلامة المنهج من أهل السنة والجماعة .

وهنا ملاحظة مهمة يحسن طرحها بهذه المناسبة ؛ ألا وهي ضرورة العلم بأن منهج السلف - رحمهم الله تعالى - ليس فكراً مجرداً في الذهن ، وإنما هو عقيدة وسلوك ، وتصور وأخلاق ، ولكن المتأمل في حياتنا معشر أهل السنة يلحظ انفصلاً - ولو بصفة جزئية - بين الجانب العقدي النظري وبين الجانب السلوكي العملي ، انفصلاً بين النظرية والتطبيق .

فقد يلاحظ مثلاً أن هناك داعية عالماً معتقداً لعقيدة السلف في التوحيد بأنواعه ، وفي أصول الاستدلال ، وفي . . . إلخ ؛ ولكن ما إن يختبر في سلوكه إلا ويظهر عليه بعض الأخلاق المشينة المخالفة لعمل السلف .

إذن عندما نتادي بمنهج أهل السنة ومنهج السلف ، فإننا نريد من ذلك منهجهم الشامل في العقيدة وفي السلوك ، ولا نريد جزئية المنهج بأن يحصل الالتزام في الجانب العقدي ويفرط في الجانب السلوكي ، كما لا نريد العكس ؛ بحيث يكون الالتزام بالجانب السلوكي والتفريط في الجانب العقدي ، ولكن نريد الأمرين جميعاً . ولو رجعنا إلى سيرة سلفنا الصالح لوجدناهم خير مثال لهذا المنهج المتكامل .

وإذ كان الأمر كذلك فنحن بحاجة إلى إدراك المقصود بمنهج أهل السنة أو منهج السلف ، وأن المراد منه الجانبان معاً : العقدي والسلوكي ، ونحن بحاجة إلى أن نكون على منهج السلف في السلوك والأخلاق كحرصنا على أن نكون على أثرهم في المعتقد والفهم ، وإذا تم إدراك ذلك فسوف تختفي من حياتنا تلك الصور والمواقف المتناقضة .

نعم ، سوف لا نجد شخصاً هو على عقيدة السلف في توحيد الألوهية والأسماء والصفات ومحاربهته للبدع ، ومع ذلك يخالف سلوك السلف في حبههم للجماعة وكرههم للفرقة ، أو يخالف سلوك السلف في اقترافه

للظلم، والكذب، والغيبة، والحسد، والشحناء، والتي ليست من أخلاق السلف .

إن هذه الازدواجية في الالتزام بمنهاج السلف سوف تزول أو تقل - إن شاء الله تعالى - بإدراك الأمر المشار إليه آنفاً .

ومن أجل ذلك الأمر - والله أعلم - نجد أن كتابات السلف - رحمهم الله تعالى - في عقيدة أهل السنة والجماعة تشير دائماً إلى بعض الجوانب السلوكية؛ وذلك لأهميتها، فنرى مثلاً شيخ الإسلام رحمه الله تعالى يذكر ذلك في العقيدة الواسطية، وهو يسرد أصول أهل السنة، فقال:

« ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة، ويرون إقامة الحج والجهاد، والجمع، والأعياد، مع الأمراء أبراراً كانوا أو فجاراً، ويحافظون على الجماعات، ويدينون بالنصيحة للأمة، ويعتقدون معنى قوله ﷺ: « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ». وشبك بين أصابعه<sup>(١)</sup>، وقوله ﷺ: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمى والسهر »<sup>(٢)</sup>، ويأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بمر القضاء، ويدعون إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ويعتقدون معنى قوله ﷺ: « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً »<sup>(٣)</sup> ويندبون إلى أن تصل من قطعك، وتعطي من

(١) رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥).

(٢) رواه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٦).

(٣) رواه أبو داود في السنة (٤٦٨٢)، والترمذي في الرضاع (١١٦٢)، وانظر السلسلة الصحيحة (٢٨٤).

حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، ويأمرون ببر الوالدين ، وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ، والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل ، والرفق بالملوك ، وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق ، ويأمرون بمعالي الأخلاق ، وينهون عن سفاسفها « اهـ .

رحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية ، فلقد كان مدركاً للترابط بين العقيدة والأخلاق ، وما إirاده لهذه الأخلاقيات في كتاب العقيدة الواسطية إلا أكبر دليل على أن الالتزام بمنهج السلف رحمهم الله تعالى يعني أن تتمثل في أهله عقيدة السلف وأخلاقهم ، وبقدر ما ينقص من هذه الجوانب سواء في المعتقد أو الأخلاق بقدر ما يحصل النقص في الالتزام بهذا المنهاج العظيم الكريم ، الذي من سار عليه نجا وأفلح ، ومن تركه خاب وخسر .

نسأل الله عز وجل أن يهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه ، إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، كما نسأله سبحانه أن يهدينا لأحسن الأخلاق ؛ لا يهدي لأحسنها إلا هو ، وأن يصرف عنا سيئها ؛ لا يصرف عنا سيئها إلا هو . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه .



الرسالة الرابعة

إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ

[ الأنعام : ٨٣ ]

عبد العزيز بن ناصر المجالي





## إن ربك حكيم عليم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإن الله عز وجل خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له . وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه ، حيث يرجعون إليه سبحانه فيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ، ثم إن الله سبحانه وتعالى قد ركب في فطر خلقه الاستعداد للتوحيد ، والانجذاب إليه سبحانه فيما لو تركت النفس بدون مغير ؛ كما قال الله عز وجل في الحديث القدسي «إني خلقت عبادي حنفاء... الحديث»<sup>(١)</sup> .

وقد أودع عز وجل في هذا الكون من الآيات الباهرات التي تدل عليه سبحانه وأنه وحده الخالق المدبر لهذا الكون ، وأنه هو المستحق للعبادة وحده .

ولكن مع كل هذا الاستعداد الفطري للتوحيد ومعرفة الله عز وجل بآياته إلا أنه سبحانه وتعالى وبواسع رحمته ، وعظيم إحسانه لم يكلنا إلى فطرتنا وحدها ؛ ذلك لما يعتري الفطرة السليمة من الفساد والركام بفعل المؤثرات

(١) صحيح مسلم - كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٦٥) .

الخارجية أولاً ، وثانياً: لأن الفطرة الإنسانية مهما كانت سليمة وموحدة لبارئها وعالمة به في الجملة ؛ إلا أن هذا العلم والتوحيد سيقى مجملاً وناقصاً .

ومن أجل ذلك أرسل الله عز وجل الرسل عليهم الصلاة والسلام ليزيلوا ركام الوثنية والشرك الذي تراكم على النفوس ليردوها إلى التوحيد الخالص لله عز وجل ويعرفوهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى والتي لا تدركها الفطرة بدون معلم ، كما يعلمونهم الأحكام ، والتشريعات الربانية التي تُصلح أمور دينهم ودنياهم ، ويعلموهم أن لهم ميعاد يوم لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ، وأن هناك جنة وناراً وللجنة أهلون لهم صفات يليقون بها ، وللنار أهلون لهم صفات يستحقون العذاب بسببها ، وكل هذه المعارف والعقائد لا تعرف لولا رحمة الله عز وجل ، بإرسال الرسل ، انزال الكتب .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

ومن أمور التوحيد التي فصلها سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ، وعلى لسان رسوله ﷺ أمر أسمائه الحسنى وصفاته العليا ، التي يعرف بها العباد خالقهم ورازقهم ومعبودهم سبحانه حتى يقدره حق قدره ، ويعبدوه حق عبادته ، ولتمتلى النفوس بعظمته وجلاله وليتعبدوا له سبحانه ويدعونه بها ، قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

وإن توحيد الأسماء والصفات له شأن عظيم ، وأثر كبير في النفوس

والقلوب ، ولا يصح إيمان عبد إلا بإيمانه بأسماء الله عز وجل وصفاته ، ولكن ما معنى الإيمان بالأسماء والصفات ؟ .

إن الإيمان بأسماء الله عز وجل وصفاته لا يتم على الوجه الصحيح إلا أن ينبنى الفهم فيها على ثلاث أسس مهمة ذكرها الإمام الشنقيطي رحمه الله تعالى في محاضرة له عن ( منهج دراسة آيات الأسماء والصفات ) ، قال في خاتمها : إنا نوصيكم وأنفسنا بتقوى الله ، وأن تلتزموا بثلاث آيات من كتاب الله :

الأولى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] ؛ فزهو رب السموات والأرض عن مشابهة الخلق .

الثانية : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] ؛ فتؤمنوا بصفات الجلال والكمال الثابتة بالكتاب والسنة ، على أساس التنزيه كما جاء ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ .

الثالثة : أن تقطعوا أطماعكم عن إدراك حقيقة الكيفية ؛ لأن إدراك حقيقة الكيفية مستحيل ، وهذا نص الله عليه في سورة طه ؛ حيث قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠] .

وإن هذا الذي ذكره الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى في المنهج الصحيح لفهم الأسماء والصفات ، لا بد أن ينضم إليه الشعور بآثارها القلبية ، والتعبد لله عز وجل ودعائه بها ، وإلا لن يتم الإيمان بالأسماء والصفات كما آمن به سلف الأمة الذين جمعوا بين الفهم والعمل ، ونظروا إلى كل اسم من أسماء الله عز وجل بأن فيه حقاً من العبودية لله عز وجل على العباد ، يتعبدون لله سبحانه وتعالى به .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى (١) :

«فصل» والأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية والأمر ، اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين ، فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها؛ أعني من موجبات العلم بها ، والتحقق بمعرفتها ، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح .

فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة؛ يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً ، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً .

وعلمه بسمعه تعالى وبصره ، وعلمه وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وأنه يعلم السر وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ؛ يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله . وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه ، فيثمر له ذلك الحياء باطناً ، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح .

ومعرفته بغناه ، وجوده ، وكرمه ، وبره ، وإحسانه ، ورحمته ؛ توجب له سعة الرجاء ، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه ، وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه يثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة . وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي من موجباتها .

وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبة خاصة

(١) مفتاح دار السعادة ص ٤٢٤ .

بمنزلة أنواع العبودية ، فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها ارتباط الخلق بها ، فخلقه سبحانه وأمره هو موجب أسمائه وصفاته في العالم وأثارها ومقتضياتها . اهـ .

وقال رحمه الله تعالى في (طريق الهجرتين) :

« والمقصود أن الرب أسماؤه كلها حسنى ليس فيها اسم سوء ، وأوصافه كلها كمال ليس فيها صفة نقص ، وأفعاله كلها حكمة ليس فيها فعل خال عن الحكمة والمصلحة ، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ، موصوف بصفة الكمال ، مذكور بنعوت الجلال منزّه عن الشبيه والمثال ، ومنزه عما يضاد صفات كماله ؛ فمنزه عن الموت المضاد للحياة ، وعن السنّة والنوم والسهو والغفلة المضاد للقيومية ، وموصوف بالعلم منزّه عن أضداده كلها ، من النسيان والذهول وعزوب شيء عن علمه ، موصوف بالقدرة التامة منزّه عن ضدها من العجز ، واللغوب ، والإعياء ، موصوف بالعدل منزّه عن الظلم ، موصوف بالحكمة منزّه عن العبث ، موصوف بالسمع والبصر منزّه عن أضدادهما من الصمم والبكم ، موصوف بالعلو والفوقية منزّه عن أضداد ذلك ، موصوف بالغنى التام منزّه عما يضاده بوجه من الوجوه مستحق للحمد كله .

فيستحيل أن يكون غير محمود كما يستحيل أن يكون غير قادر ولا خالق ولا حي وله الحمد كله واجب لذاته ، فلا يكون إلا محموداً كما لا يكون إلا إلهاً ورباً قادراً»<sup>(١)</sup> .

كما سبق من هذه النقول ، يتبين أن المقصود من الإيمان بتوحيد الأسماء

(١) طريق الهجرتين ص ٢٠٣ .

والصفات ليس مجرد المعرفة الذهنية فقط ، وإنما المقصود أن نفهمها كما فهمها رسول الله ﷺ وصحابته الكرام لفظاً ومعنى ، والتعبد لله سبحانه وتعالى بها والعمل بمقتضاها .

ولقد أحدث أهل الكلام وتلامذتهم من المبتدعة حدثاً كبيراً في هذا الركن الركين من التوحيد ؛ حيث تحول التعبد لله تعالى بأسمائه وصفاته إلى جدل كلامي ، ودراسات فلسفية ، وانعكس ذلك بدوره حتى على الذين يدرسون أو يُدرِّسون الأسماء والصفات على منهاج أهل السنة والجماعة ، فقلما نجد من الدارسين أو المدرسين لهذا العلم العظيم من يشير إلى المقصود الأساسي من دراسة هذا العلم ؛ ألا وهو التعبد لله تعالى بأسمائه وصفاته والعمل بمقتضاها كما مر بنا في كلام الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى .

ولكي يثبت لنا صحة هذه الملاحظة وأنا نمر على أسماء الله تعالى وصفاته ولا نقف عند مدلولاتها وآثارها في القلب وفي الواقع ، نأخذ على سبيل المثال - لا على سبيل الحصر - اسمين من أسماء الله تعالى الحسنين طالما قرأناهما مقترنين في كتاب الله تعالى ، ومع ذلك لا نقف على سرائرهما ، ولا على مدلول ولوازم كل اسم منهما ، وماذا يجب علينا من العبودية فيهما .

وهذان الاسمان هما المذكوران في عنوان هذا البحث : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ٨٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

[الأنعام: ١٢٨]

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف: ٦].

والآيات التي ختمت بهذين الاسمين الكريمين كثيرة جداً في كتاب الله عز وجل ، فما معنى هذين الاسمين الجليلين ، وما مقتضاهما ومدلولهما ؟ .

قال الإمام الشنقيطي رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ :

الحكم في الاصطلاح : هو من يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها ، فالله جل وعلا حكم لا يضع أمراً إلا في موضعه ، ولا يوقعه إلا في موقعه ، ولا يأمر إلا بما فيه الخير ، ولا ينهى إلا عما فيه الشر ، ولا يعذب إلا من يستحق العذاب وهو جل وعلا ذو الحكمة البالغة له الحجة والحكمة البالغة .

وأصل الحكم في لغة العرب : معناه : المنع ؛ نقول : حكمه ، وأحكمه إذا منعه . قال الشاعر :

إني أخاف عليكم أن أغضبا      ابني حنيفة أحكموا سفهاءكم

وقال آخر :

فنحكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء  
هذا هو أصل الحكم .

والحكمة: فعلة من الحكم ، وأظهر تفسير لها : العلم النافع ؛ لأن العلم النافع هو الذي يحكم الأقوال والأفعال ؛ أي يمنعها من أن يعترتها الخلل ؛ فمن كان عنده العلم الكامل ؛ فإنه لا يضع الأمر إلا في موضعه ، ولا يوقعه إلا في موقعه ؛ لأن كل إخلال في الأحكام إنما هو من الجهل بعاقبة الأمور ، فترى الرجل الحاذق البصير يفعل الأمر ؛ يظن أنه في غاية الإحكام ، ثم ينكشف الغيب أنه فيه هلاكه ؛ فيندم حين لا ينفع الندم ؛ ويقول : ليتني لم أفعل ، أو لو أنني فعلت كذا لكان أحسن .

أما الله سبحانه العالم بعواقب الأمور وما تصير إليه والعالم بما كان ويكون ، فلا يضع أمراً إلا في موضعه . ومحال أن ينكشف الغيب عن أن ذلك الأمر على خلاف الصواب لعلمه سبحانه بما تؤول إليه الأمور .

والعليم : صيغة مبالغة ؛ لأن علم الله جل وعلا محيط بكل شيء ؛ يعلم خطرات القلوب ، وخائبات العيون ، وما تخفي الصدور ؛ حتى إن من إحاطة علمه سبحانه علمه بالعدم الذي سبق في علمه ألا يوجد ، فهو عالم أن لو وجد كيف يكون .

وأن اسم (الحكيم العليم) فيه أكبر مدعاة للعباد أن يطيعوه ، ويتبعوا تشريعه ؛ لأن حكمته سبحانه تقتضي ألا يأمرهم إلا بما فيه الخير ، ولا ينهاهم إلا عما فيه الشر ، ولا يضع أمراً إلا في موضعه ، وبإحاطة علمه يعلمون أن ليس هنالك غلط في ذلك الفعل ، أو أن ينكشف عن غير المراد ؛ بل هو في غاية الإحاطة والإحكام ، وإذا كان من يأمر بحكم لا يخفى عليه شيء حكيم في غاية الإحكام لا يأمر إلا بما فيه الخير ، ولا ينهك إلا عن ما فيه



الشر ، فإنه يحق عليك أن تطيع وتمثل «<sup>(١)</sup> اهـ .

مما سبق من كلام الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى يتبين أن اسم الحكيم يقتضي الإيمان بأن الله عز وجل حكيم في أحكامه وقضائه وقدره ؛ فكما أنه حكيم في شرعه ودينه فهو حكيم في قضائه وقدره ؛ لأن من المعلوم أن ما يحكم به سبحانه وتعالى ويقتضيه في هذا الكون نوعين من الحكم :

١ - حكم كوني قدري .

وهو قسمان :

- قسم يمكن مدافعته .

- قسم ليس في الوسع مدافعته .

٢ - حكم ديني شرعي :

والله سبحانه وتعالى حكيم عليم في أحكامه الكونية القدرية ، وحكيم عليم في أحكامه الدينية الشرعية . قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في (طريق الهجرتين)<sup>(١)</sup> :

« بل الأحكام ثلاثة :

الحكم الأول : حكم شرعي ديني :

فهذا حقه أن يتلقى بالمسألة والتسليم وترك المنازعة ؛ بل الانقياد المحض ، وهذا تسليم العبودية المحضة ؛ فلا يعارض بذوق ولا وجد ولا سياسة ولا قياس ولا تقليد ، ولا يرى إلى خلافه سبيلاً البتة ، وإنما هو الانقياد المحض والتسليم والإذعان والقبول .

فإذا تلقي بهذا التسليم والمسألة ، إقراراً وتصديقاً بقي هناك انقياد آخر ،

(١) من شريط مسجل بصوت الشيخ رحمه الله تعالى .

(٢) طريق الهجرتين ص ٦٣ .

وتسليم آخر له ، إرادة وتنفيذاً وعملاً ؛ فلا تكون له شهوة تنازع مراد الله من تنفيذ حكمه ، كما لا تكون له شبهة تعارض إيمانه وإقراره ، وهذا حقيقة القلب السليم الذي سلم من شبهة تعارض الحق ، وشهوة تعارض الأمر ، فلا استمتع بخلاقه كما استمتع به الذين يتبعون الشهوات ، ولا خاض في الباطل خوض الذين يتبعون الشبهات ، بل اندرج خلاقه تحت الأمر ، واضمحل خوضه في معرفته بالحق ، فاطمأن إلى الله معرفة به ، ومحبة له ، وعلماً بأمره ، وإرادة لمرضاته ، فهذا حق الحكم الديني الشرعي .

الحكم الثاني : الحكم الكوني القدري ، والذي للعبد فيه كسب واختيار

وإرادة :

والذي إذا حكم به يسخطه ويبغضه ويذم عليه ، فهذا حقه أن ينازع ويدافع بكل ممكن ولا يسالم البتة ، بل ينازع بالحكم الكوني أيضاً ، فينازع حكم الحق بالحق للحق ؛ فيدافع به وله ، كما قال شيخ العارفين في وقته عبد القادر الجيلي : « الناس إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا ، وأنا انفتحت لي روزنة<sup>(١)</sup> ، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق ، والعارف من يكون منازعاً للقدر لا واقفاً مع القدر » .

فإن ضاق ذرعك عن هذا ، فتأمل قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد عوتب على فراره من الطاعون ، فقبل له : أتفر من قدر الله ؟ ، فقال : «نفر من قدر الله إلى قدره» .

ثم كيف ينكر هذا الكلام من لا بقاء له في هذا العالم إلا به ، ولا تتم له مصلحة إلا بموجبه ؛ فإنه إذا جاء قدر الجوع والعطش أو البرد نازعه وترك

(١) الروزنة : الكوة النافذة في أعلى السقف .

الانقياد له ومسالته ودفعه بقدر من الأكل والشرب واللباس ؛ فقد دفع قدر الله بقدره .

وكذا إذا وقع الحريق في داره ، فهذا بقدر الله ، فما باله لا يستسلم له ويسالته ويتلقاه بالإذعان؟ ، بل ينازعه ويدافعه بقدر الله ، وما خرج في ذلك عن قدر الله .

وهكذا إذا أصابه مرض بقدر الله دافع هذا القدر ونازعه بكل ما يمكنه ؛ فإن غلبه وقهره حرص على دفع آثاره وموجباته بالأسباب التي نصبها الله لذلك ، فيكون قد دفع القدر بالقدر ، ومن لم يستبصر في هذه المسألة ويعطيها حقها لزمه التعطيل للقدر أو الشرع شاء أو أبى ، فما للعبد ينازع أقدار الرب بأقداره في حظوظه ، وأسباب معاشه ، ومصالحه الدنيوية ، ولا ينازع أقداره في حق مولاه وأوامره ودينه ؟ وهل هذا إلا خروج عن العبودية ونقص في العلم بالله وصفاته وأحكامه؟! .

ولو أن عدواً للإسلام قصده لكان هذا بقدر الله ، ويجب على كل مسلم دفع هذا القدر بقدر يحبه الله ؛ وهو الجهاد باليد أو المال أو القلب ، دفعاً لقدر الله بقدره ، فما للاستسلام والمسالمة هنا مدخل في العبودية ؛ اللهم إلا إذا بذل العبد جهده في المدافعة والمنازعة ، وخرج الأمر عن يده ، فحينئذ يبقى من أهل :

الحكم الثالث : وهو الحكم القدري الكوني الذي يجري على العبد بغير اختياره ، ولا طاقة له بدفعه ولا حيلة له في منازعته :

فهذا حقه أن يتلقى بالاستسلام والمسالمة ، وترك المخاصمة ، وأن يكون فيه كالميت بين يدي الغاسل ، وكمن انكسر به المركب في لجة البحر وعجز عن السباحة ، وعن سبب يدينه من النجاة ، فهذا هنا يحسن الاستسلام

والمسألة ؛ مع أن عليه في هذا الحكم عبوديات أخرى سوى التسليم والمسألة ، وهي أن يشهد عزة الحاكم في حكمه ، وعدله في قضائه ، وحكمته في جريانه عليه ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن الكتاب الأول سبق بذلك قبل بدء الخليقة ، فقد جف القلم بما يلقيه كل عبد ، فمن رضي ، فله الرضا ، ومن سخط فله السخط .

ويشهد أن القدر ما أصابه إلا الحكمة اقتضاها اسم الحكيم جل جلاله وصفته الحكمة ، وأن القدر قد أصاب مواقعه ، وحل في المحل الذي ينبغي له أن ينزل به ، وأن ذلك أوجب عدل الله وحكمته وعزته وعلمه وملكه العادل ، فهو موجب أسمائه الحسنی ، وصفاته العلی ، فله عليه أكمل حمد وأتمه ، كما له الحمد على جميع أفعاله وأوامره «<sup>(١)</sup> اهـ .

وفي ضوء هذا الكلام البديع للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى تبرز لنا حقيقتان مهمتان من لوازم ومقتضيات اسم الله عز وجل ( الحكيم ) :

#### الحقيقة الأولى :

أن اسم (الحكيم) يلزم الإيمان به لوازم قلبية تعبدية تقتضي الإيمان الجازم بأن الله عز وجل حكيم في جميع أحكامه الدينية الشرعية ، ليس لأحد من البشر أن يعارضها أو يأتي بما يناقضها أو يخلطها بغيرها .

بل إن اسم (الحكيم) لله سبحانه يفرض على العبد الاستسلام لشرع الله الحكيم ، فيحكم به ، ويتحاكم إليه ، ويرفض كل شرع يخالف شرع الله حكماً وتحاكماً ، ويؤمن إيماناً جازماً أن من شرع ديناً ونظماً لم يأذن به الله تعالى ، وادعى أنه أصلح لحياة الناس ومعاشهم ، أو ساواه بشرع الله ، أو

(١) طريق الهجرتين ، ص ٦٣ .

جوز الحكم به ، فإنه قد أشرك بالله عز وجل ، ومن أطاعه في ذلك على علم فقد أشرك بالله أيضاً .

ذلك لأن في هذا الصنيع كفراً بأسماء الله عز وجل وصفاته ، ومنها اسم (الحكيم) ، فوق ما فيه من كفر بتوحيد الألوهية ، وبالذات توحيد الطاعة والاتباع . قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ .

[الأحزاب : ٣٦]

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ .

[الأنعام : ١٢١]

وإن خطورة هذا الشرك لتظهر في عصرنا اليوم الذي أفضي فيه شرع الله عز وجل جانباً ، وحكم في الأنفس والعقول والأموال والأعراض بأنظمة البشر وأهواء البشر ، التي تخلو من العلم والحكمة ، ومعرفة عواقب الأمور ، وإنما الذي يسيطر عليها الجهل والهوى والتخبط . وإنه لم يظهر مثل هذا الشرك الخطير في تاريخ الأمة الإسلامية كما ظهر في زماننا اليوم .

ونظراً لخطورة هذا الأمر ، وقلة من تكلم عنه أنقل كلاماً نافعاً للشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى ، وهو يتحدث عن هذا الشرك الجديد في (أضواء البيان) عند قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٢٦] .

قال رحمه الله تعالى : « قرأ هذا الحرف عامة السبعة ما عدا ابن عامر «ولا يشرك» بالياء المثناه التحتية ، وضم الكاف على الخبر ، ولا نافية ،

والمعنى : ولا يشرك الله جل وعلا أحداً في حكمه ، بل الحكم له وحده جل وعلا ، لا حكم لغيره البتة ، فالخلال ما أحله تعالى ، والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه ، والقضاء ما قضاه ، وقرأه ابن عامر من السبعة : « ولا تُشركُ » بضم التاء المثناة الفوقية وسكون الكاف بصيغة النهي ؛ أي لا تشرك يا نبي الله ، أو لا تشرك أيها المخاطب أحداً في حكم الله جل وعلا ، بل أخلص الحكم لله من شوائب شرك غيره في الحكم ، وحكمه جل وعلا المذكور في قوله : ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ شامل لكل ما يقضيه جل وعلا ، ويدخل - في ذلك - التشريع دخولاً أولياً .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الحكم لله وحده لا شريك له فيه ، على كلتا القراءتين ، جاء مبيناً في آيات أخر ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [يوسف : ٤٠] ، قوله تعالى : ﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ... ﴾ الآية [يوسف : ٦٧] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ الآية [الشورى : ١٠] ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ .

[غافر : ١٢]

وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٨٨] ، وقوله تعالى : ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٧٠] ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حُكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام : ١١٤] ، إلى غير ذلك من الآيات .

ويفهم من هذه الآيات كقوله : ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ أن متبعي أحكام المشرعين غير ما شرعه الله أنهم مشركون بالله ، وهذا المفهوم جاء مبيناً في آيات أخرى ؛ كقوله فيمن اتبع تشريع الشيطان في إباحة الميتة بدعوى أنها ذبيحة الله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١] فصرح بأنهم مشركون بطاعتهم .

وهذا الإشراك في الطاعة واتباع التشريع المخالف لما شرعه الله تعالى هو المراد بعبادة الشيطان في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٦٠) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿ [يس: ٦٠ ، ٦١] ، وقوله تعالى تعالى عن نبيه إبراهيم : ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ [مريم: ٤٤] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴾ [النساء: ١١٧] ، أي : ما يعبدون إلا شيطانا ، وذلك باتباع تشريعه ؛ ولذا سمي الله تعالى الذين يطاعون فيما زينوا من المعاصي شركاء ، في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لَكثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمُ شُرَكَاءُهُمْ ... ﴾ الآية [الأنعام: ١٣٧] .

وقد بين النبي ﷺ هذا لعدي بن حاتم رضي الله عنه لما سأله عن قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ ... ﴾ الآية [التوبة: ٣١] ، فبين له أنهم أحلوا لهم ما حرم الله ، وحرموا عليهم ما أحل الله ، فاتبعوهم في ذلك ، وأن ذلك هو اتخاذهم إياهم أرباباً .

ومن أصرح الأدلة في هذا أن الله جل وعلا في سورة النساء بين أن من يريدون أن يتحاكموا إلى غير ما شرعه الله يتعجب من زعمهم أنهم مؤمنون ،

وما ذلك إلا لأن دعوهم الإيمان مع إرادة التحاكم إلى الطاغوت بالغة من الكذب ما يحصل منه العجب ؛ وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ .

[النساء : ٦٠]

وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور : أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على السنة أولياته مخالفة لما شرعه الله جل وعلا على السنة رسله صلى الله عليهم وسلم ، أنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته وأعماه عن نور الوحي مثلهم <sup>(١)</sup> اهـ .

وحول هذا الموضوع أيضاً قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩] : « إن هذه الآية تتضمن أموراً . . . » إلى أن قال :

« ومنها : أنه جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه ، فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان ؛ ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه ، ولا سيما التلازم بين هذين الأمرين ؛ فإنه من الطرفين ، وكلاً منهما ينتفي بانتفاء الآخر ، ثم أخبرهم أن هذا الرد خير وأن عاقبته أحسن عاقبة ، ثم أخبر أن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول فقد حكّم الطاغوت وتحاكم إليه .

والطاغوت : كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع ؛ فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ،

(١) أضواء البيان (٤/ ٩٠-٩٢).



أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله .  
فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت  
أكثرهم [عَدُّوا] من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت ، وعن التحاكم إلى الله  
وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت ، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى  
طاعة الطاغوت ومتابعته ، وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من  
هذه الأمة وهم الصحابة ومن تبعهم ، ولا قصدوا قصدهم ؛ بل خالفوهم في  
الطريق والقصد معاً .

ثم أخبر تعالى عن هؤلاء ، بأنهم إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى  
الرسول أعرضوا عن ذلك ، ولم يستجيبوا للداعي ، ورضوا بحكم غيره ،  
ثم توعدهم بأنهم إذا أصابتهم مصيبة في عقولهم وأديانهم وبصائرهم  
وأبدانهم ، وأمواهم بسبب إعراضهم عما جاء به الرسول ، وتحكيم غيره ،  
والتحاكم إليه ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاَعْلَمَ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ  
بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ [المائدة: ٤٩] ، اعتذروا بأنهم إنما قصدوا الإحسان والتوفيق ؛  
أي بفعل ما يرضي الفريقين ، ويوفق بينهما ، كما يفعله من يروم التوفيق بين  
ما جاء به الرسول ، وبين ما خالفه ، ويزعم أنه بذلك محسن قاصد  
الإصلاح والتوفيق .

والإيمان إنما يقتضي إلقاء الحرب بين ما جاء به الرسول وبين كل ما خالفه  
من طريقة وحقيقة وعقيدة وسياسة ورأي ؛ فمحض الإيمان في هذه الحرب لا  
في التوفيق ، وبالله التوفيق .

ثم أقسم سبحانه بنفسه على نفي الإيمان عن العباد حتى يحكموا رسوله  
في كل ما شجر بينهم من الدقيق والجليل ، ولم يكتف في إيمانهم بهذا

التحكيم بمجردة حتى ينتفي عن صدورهم الحرج ، والضيق عن قضائه وحكمه ، ولم يكتف منهم أيضاً بذلك حتى يسلموا تسليماً ، وينقادوا انقياداً .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ، فأخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء رسوله ، ومن تخير بعد ذلك فقد ضل ضللاً مبيئاً .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات : ١] ؛ أي : لا تقولوا حتى يقول ، ولا تأمروا حتى يأمر ، ولا تفتوا حتى يفتي ، ولا تقطعوا أمراً حتى يكون هو الذي يحكم فيه ويمضيه ، روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة ، وروى العوفي عنه قال : نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه .

والقول الجامع في معنى الآية : لا تعجلوا بقول ولا فعل قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو يفعل .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات : ٢] . فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سبباً لحبوط أعمالهم ، فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياساتهم ومعارفهم على ما جاء به ورفعها عليه ؟ أليس هذا أولى أن يكون محبطاً لأعمالهم ؟ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ

عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴿ [النور: ٦٢] ، فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهباً إذا كانوا معه إلا باستئذانه ، فأولى أن يكون من لوازمه ألا يذهبوا إلى قول ولا مذهب إلا بعد استئذانه ، وإذنه معروف بدلالة ما جاء به على أنه أذن فيه «<sup>(١)</sup> اهـ .

### الحقيقة الثانية :

ومن لوازم الإيمان باسم الله (الحكيم) الإيمان بأن ما يقضيه الله عز وجل من أحكامه الكونية القدرية فيها الحكمة البالغة ، وفيها الصلاح والخير ، إما في الحال أو المآل ، ولو ظهر فيها شيء مما تكرهه النفوس وتتألم منه مما يقدره الله سبحانه ، ففيه الخير والصلاح للناس ولو لم يظهر للبشر هذه الخيرية ؛ فلا بد من الإيمان بأن الله عز وجل له الحكمة البالغة فيما يقدر ، وهذا ما يقتضيه اسم الله (الحكيم) .

يقول الله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] .

قال سيد قطب رحمه الله حول هذه الآية : « . . . إنه من يدري فلعل وراء المكروه خيراً ، ووراء المحبوب شراً . إن العليم بالغايات البعيدة المطلع على العواقب المستورة هو الذي يعلم وحده ، حيث لا يعلم الناس شيئاً »<sup>(٢)</sup> اهـ .

والمقصود أن الإيمان بأن الله سبحانه حكيم في قضائه وقدره ؛ يفرض على المسلم الاستسلام والرضا بما يقدره الله عز وجل ، من الأحكام الكونية

(١) إعلام الموقعين (١/ ٥٠) .

(٢) في ظلال القرآن ص ٣٢٣ . دار المعرفة .

القدرية ، من مصائب وأمراض وغيرها، مما لا يستطيع دفعه بالأسباب الشرعية، أما ما يمكن دفعه ومنازعه بقدر آخر من أقدار الله عز وجل ؛ فإن هذا لا يعارض الإيمان بالقدر، كما سبق نقله عن الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى<sup>(١)</sup>.

فالإيمان بعلم الله عز وجل وكتابته لجميع المقادير قبل وقوعها ، ثم الإيمان بأنه سبحانه حكيم فيما يفعل ويقضي ويقدر، كل هذا يبث الروح والطمأنينة ويسكبها في قلب المسلم المخبت لربه ، المطمئن لقضائه وقدره ، الموقن بأن كل ما يكتبه الله عز وجل عليه من مصائب وغيرها فهي خير له إما عاجلاً أو آجلاً ، كما قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، وكما قال ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن ! إن أمره كله له خير ؛ وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له »<sup>(٢)</sup> ، وكقوله ﷺ : « ... والخير كله في يديك والشر ليس إليك »<sup>(٣)</sup>.

فالشر ليس إليه سبحانه ولو ظهر لنا أن هذا الفعل شر ومكروه، فهو بالمآل خير وصالح . ولقد كان أنبياء الله عز وجل يدركون ما في أسماء الله عز وجل من العبوديات وما يلزم عليها من الرضا والتسليم والطمأنينة لقضاء الله وقدره .

فهذا نبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام عندما جاءه الخبر بحجز ابنه الثاني عند عزيز مصر - وقد سبق ذلك فقدته ليوسف عليه السلام - توجه

(١) انظر ص : ١٥٤ - ١٥٥ .

(٢) صحيح مسلم - كتاب الزهد والرفائق (٢٩٩٩) .

(٣) مسلم - كتاب صلاة المسافرين (٧٧١) .

برجائه ودعائه لله عز وجل . قال تعالى يحكي حاله : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ  
أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ  
الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف : ٨٣].

ومن خلال التأمل للآيتين السابقتين نلاحظ أن يعقوب وابنه عليهما  
الصلاة والسلام قد ختما تضرعهما لله عز وجل بعد المصائب التي حلت بهما  
بهذين الاسمين العظيمين (العليم الحكيم).

واختيار هذين الاسمين الجليلين في هذا المقيام له دلالة ومغزاه ؛ لأن  
أعرف الناس بالله عز وجل هم أنبيأؤه ورسله ، ولقد ختما تضرعهما إلى الله  
عز وجل باسم (العليم الحكيم) ، وذلك والله أعلم لما بيثه هذان الاسمان  
الكريمان في قلب المسلم من الرضا والطمأنينة والتسليم لقدر الله عز وجل ،  
وأن شيئاً في هذا الكون لا يحدث إلا بعلم الله عز وجل وحكمته البالغة .

وبينما كنت في نهاية هذا البحث وخاتمته قدر الله عز وجل الأحداث  
الموجعة التي تعيشها المنطقة الإسلامية هذه الأسابيع ، والتي تعرف بأحداث  
الخليج على إثر الاجتياح العراقي لدولة الكويت ، ومع ما تحمله هذه  
الأحداث من مصائب ونكبات ، إلا أنه ظهر وسيظهر من مقتضيات اسم الله  
(العليم الحكيم) دروس وعبر ومشاهد ، تزيد في إيمان المؤمن بأسماء الله عز  
وجل الحسنی وصفاته العليا .

ولذا أحببت أن أدلي ببعض المعاني التي جالت في الخاطر إزاء هذه  
الأحداث بعد ربطها بهذين الاسمين الجليلين العظيمين من أسماء الله عز وجل  
الحسنی (العليم) ، (الحكيم) ، فأقول وبالله التوفيق :

إن من الأصول المستقرة في باب الإيمان بالله عز وجل ، الإيمان بقضائه وقدره ، وأن شيئاً لا يحدث في هذا الكون صغيراً أو كبيراً إلا بعلم الله عز وجل وإرادته وخلقه له ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ ﴾ [القمر: ٥٣] .

كما أن الإيمان بالله سبحانه وقضائه وقدره وأسمائه وصفاته ، لا يحصل إلا بأن يجزم المسلم أن ما يكتبه الله عز وجل ويقدره في هذا الكون من ورائه حكمة بالغة ، ولو ظهر للناظر أنه شر ومكروه ؛ فالإنسان بإدراكه المحدود في الزمان والمكان ، ولأن من طبيعته الجهل والظلم ، فإنه لا يمكن أن يدرك مآلات الأمور وعواقبها ، ولا يعلم بذلك إلا العليم الحكيم ، خالق الأشياء ومقدرها ، وعالم الغيب والشهادة .

قال تعالى : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النمل: ٦٥] . وقال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

[الحديد: ٢٢]

إذ الأمر كذلك ؛ فلا شك ولا ريب ، أن ما حصل من أحداث ، وشروخ في أحداث الخليج إثر الاجتياح البعثي للكويت لابد وأن نخضعه للأصول الأنفة الذكر ، وأن من حاد عن هذا المنهج فقد خسر إيمانه بالله عز وجل أصلاً ، وانحاز إلى معسكر الكفر والإلحاد ، الذين لا يؤمنون بشيء من هذه الحقائق ، وإنما يفسرون أحداث التاريخ تفسيراً مادياً معزولاً عن علم الله عز وجل وتقديره ، وحكمته البالغة فيما يخلق ويقدر .

وعلى ضوء ما سبق ؛ فإن الواجب على المسلم إزاء هذه الأحداث أن يؤمن إيماناً جازماً أن ما قدره الله عز وجل في أحداث الخليج ، وإن كانت موجعة مؤلمة ؛ فإن من ورائها حكمة بالغة اقتضتها حكمة أحكم الحاكمين والمرتبطة باسمه (الحكيم) سبحانه وتعالى .

ولقد ظهرت بعض الدروس والحكم جلية من خلال هذه الأحداث المؤلمة ، مع أن ما خفي علينا في غياب الله عز وجل من الحكم والمصالح أكثر ، ومن هذه الدروس التي ظهرت ما يلي :

الدرس الأول : التعرف على سنة الله عز وجل في التغيير وهي التفسير الإسلامي للأحداث :

إن ما حصل من أحداث في دولة الكويت ، وما ترتب على هذا الحدث من أمور ومستجدات قد فتح أعيناً عمياً وأذاناً صماً على حقيقة مهمة وسنة ثابتة لا تتغير ؛ ألا وهي : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١] ، وأصبحنا والحمد لله نجد هذه الحقيقة على ألسن كثير من الناس الذين من الله عليهم باليقظة بعد الغفلة رجالاً ونساءً وعواماً ومثقفين ، وهذا بحد ذاته نعمة ومنحة ورحمة من الله عز وجل لم تكن لتحصل لولا قدر الله عز وجل لهذا الحدث .

لقد كنا نعترف ونؤمن بهذه الحقيقة قبل ذلك ، ولكنه إيمان ضعيف ، أما الآن فقد تحول هذا الإيمان إلى صورة واقعية عملية ؛ صار الخبر فيها عياناً ، ولا شك أن الإيمان بهذه السنة الثابتة وأثرها على النفوس سيكون أبلغ وأقوى من الإيمان بها قبل وقوعها ، وكما هو معروف أن الطرق على الحديد وهو ساخن أقوى بكثير في تليينه وتأثره من الطرق عليه وهو بارد .

كما أن رحمة الله عز وجل وحكمته البالغة قد تجلت في هذا الحادث بأنه لم يترك الناس ينحدرون وبعجلة سريعة إلى الفساد ، وهم غافلون عما ينتظرهم من الهوة السحيقة التي هم قادمون عليها لو استمر انحدارهم ، ولم يأت ما يوقفهم ويحد من انحدارهم إذا لم يصلحوا أنفسهم ، ويوقفوا فسادهم بالوسائل الشرعية للإصلاح ، فيقدر عليهم أحداثاً مؤلمة تشدهم عن المزيد من الانحدار ، وتقف أمام تهالكهم على الفساد لعلهم يرجعون ويتوبون ويستيقظون من غفلتهم .

قال الله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] ، وهذه والله هي عين النعمة والرحمة ، وإن كان ظاهرها التشريد والقتل وفقد الأموال ، فإن كل هذه المصائب تهون وتصغر عند فقد الدين ، وما يترتب على ذلك من مفاسد كبيرة ، لو استمرت عجلة الفساد في انحدارها الشديد ، ولم يأت للناس ما يوقفهم ويهز رؤوسهم ليستيقظوا ويتداركوا أنفسهم من السقوط في هوة سحيقة هم متجهون إليها لو لم يوقفهم الله عز وجل بما يقدره من أحداث .

وإن هذا الدرس العظيم لا يدركه ، ولا يستفيد منه إلا المؤمن الذي يجعل من مثل هذه الأحداث باباً إلى التوبة ومحاسبة النفس ، والرجوع إلى الله عز وجل ، وتغيير الأحوال .

أما المنافق ، والمادي ، والعلماني ، وغيرهم من أهل الإلحاد والزندقة ، فلا تراهم إلا ساخرين ومستهزئين من هذه المعاني العظيمة ، والأصول الإيمانية الثابتة ، ولا تزيدهم هذه الأمور إلا كبراً ما هم بباليغيه ، ولن



يزيدهم هذا إلا رجساً إلى رجسهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (١٢٥) أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٦].

وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣] .

الدرس الثاني : تمييز الخبيث من الطيب :

يقول الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطَّلِعَ عَلَيْكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ... ﴾ الآية ﴿ [آل عمران: ١٧٩]

إن من رحمته تعالى وحكمته البالغة أن يقدر أحداثاً مؤلمة تتميز من خلالها الصفوف ، وتتعرى فيها النفوس ، فتظهر على حقيقتها للناس . وهذا هو الذي ظهر من خلال هذه الأحداث ؛ حيث ظهرت حقائق مهمة ساهمت في توعية الناس ، والدعاة منهم بصفة خاصة ، وذلك بحقيقة أعدائهم ، وتهافت راياتهم ، وانكشاف مخططاتهم ، وادعاءاتهم الكاذبة التي كانوا يخدعون بها الناس .

وتعرت بذلك دول وأفكار ودعوات ، بل إن الإنسان نفسه قد تعرى أمام نفسه ، وكشف من خلال هذه الأحداث حقائق من حوله ، ومن نفسه ، ما كانت لتعرف لو لم يقدر الله عز وجل مثل هذه الأحداث ، وإن هذه الثمرة الكبيرة ، من توعية المسلمين بحقيقة أعدائهم ، وبحقيقة الأفكار والنحل التي

تتلاطم من حولهم ، ما كانوا ليعرفوا عنها شيئاً ، وبهذا الكم الهائل من المعلومات ، لولا تقدير الله عز وجل لهذا الحدث .

وقد حقق الله عز وجل هذه الثمرة في أسابيع عدة ما كانت الدعوة الإسلامية لتحصل عليها في عدة سنوات ، والأيام حبلى بدروس وعبر جديدة ؛ أليس هذا من رحمة الله وفضله ؟ ، بلى والله .

ولا يعني هذا أنا نتمنى المصائب والفتن ؛ معاذ الله ، فإن المسلم لا يدري ما تكون حاله حينئذ ، وقد نهانا رسول الله ﷺ عن ذلك بقوله : « لا تتمنوا لقاء العدو ، وإذا لقيتموه فاصبروا »<sup>(١)</sup> .

ولكن أردت الإشارة هنا إلى ربط الأحداث بعلم الله عز وجل وحكمته البالغة ، وأن شيئاً في هذا الكون لا يكون إلا بعلم الله عز وجل وحكمته البالغة ، ويريد الله عز وجل من الخير للمسلمين في الحال أو المآل .

### الدرس الثالث : أهمية التوحيد والتربية عليه :

لقد ظهر من خلال هذه الأحداث الأهمية البالغة لتربية النفوس على عقيدة التوحيد الخالص ، ولقد بدا من خلال الأحداث أن هناك ضعفاً شديداً في هذا الجانب المهم في حياة المسلم ، كما ظهر من خلال الأحداث أن هذا الأصل المهم من أصول الإيمان لم يأخذ حقه من التربية العلمية والعملية .

ولعل من أهم دروس هذا الحدث أن يشعر المسلمون وأرباب التوجيه والتربية بضعف هذا الجانب ، وما كان ليعرف هذا الخلل لولا تقدير الله

(١) متفق عليه .

سبحانه وتعالى هذه الأحداث .

ومن مظاهر هذا الضعف ما حصل من الارتباك الشديد في بعض المفاهيم العقدية، والتي تعتبر من الثوابت والأصول التي لا تتزعزع ، ولا تهتز ولا تتغير مهما تغيرت الأحوال والأزمان والأمكنة ، ومن أهم هذه الأصول التي اعترافها الاهتزاز ، مفهوم الولاء والبراء، والعداوة للكافرين والمشركين والمنافقين بشتى مللهم وأفكارهم .

أما أن يصبح العدو صديقاً والصديق عدواً ، وأما أن تبذل المحبة للكافر والعداوة للمسلم ، ويكون الميزان في الحب والعداوة موازين الأرض وموازن المصالح الشخصية ؛ فهذا كله مما ترفضه عقيدة التوحيد الثابتة ، والتي تقوم المواولة والمعاداة على أساسها ، وهذا هو أصل لا إله إلا الله ؛ الكلمة الطيبة التي وصفها الله عز وجل بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥] .

وهي الكلمة التي من أجلها أرسل الرسل وأنزلت الكتب ، وجاهد من أجلها أنبياء الله عز وجل ودعاته الصادقون ، كما قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴾ [المتحنة: ٤] .

أما ما سواها من المصالح الشخصية والموازن الأرضية فليس لها صفة الثبات ؛ بل إن أبرز خصائص المصالح والموازن الأرضية ؛ عدم الثبات والروغان ، فالذي يحب ويعادي من أجل المصالح الدنيوية يدور مع هذه

المصالح حيث دارت ، فقد يعادي في الصباح من أحبه في المساء ، وقد يوالي في المساء من عاداه في الصباح ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ (٢٦) يثبتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ ﴿ [إبراهيم: ٢٦ ، ٢٧] ، اللهم ثبتنا بقولك الثابت ، ولا تضلنا مع الظالمين .

ومما يؤيد ضرورة الاهتمام الشديد بالتربية على التوحيد ؛ ما ظهر من النقص والضعف في توحيد التوكل والاستعانة والاستغاثة وغيرها ، وما نتج عن هذا الضعف من الركون إلى غير الله عز وجل من أعداء هذا الدين ، والثقة بما عندهم أكثر من الثقة فيما عند الله عز وجل .

ولأجل كل ما سبق ، ظهر أن الحاجة ماسة جداً إلى مزيد من التربية على العقيدة علماً وعملاً ؛ بأن نتعلم أركان التوحيد ، وما يصاده من الشرك القديم والجديد ، وألا يستخفنا الذين لا يوقنون من أرباب السياسة والمصالح الأرضية ، فيستهووننا معهم ، ويركبوننا في ركابهم ، بل يجب علينا الحذر الشديد منهم ومن مكرهم ، وأن نقبل على ديننا نتعلمه ، ونعمل به وندعو إلى الله ، ونصبر على الأذى فيه ، وألا نستطول الطريق أو الوقت الذي نمضيه في تعلم التوحيد ، وكل متعلقاته .

كما يجب علينا أن نعي واقعنا ، وأن نربط ما تعلمناه من دين الإسلام بقضايا عصرنا ، ومستجداته من الأفكار والنحل التي لم تكن موجودة عند أسلافنا ، وأن يكون للتربية الشاملة على التوحيد دورها في مواجهة الشرك المعاصر ، والتي تشن فيه العلمانية معارك طاحنة ضد المسلمين بوسائل شتى .

أي أننا نريد منهجاً دعوياً يقوم على (سلفية المنهج وعصرية المواجهة)<sup>(١)</sup> ونقصد بالسلفية: العودة بأصول الفهم والاستدلال إلى الكتاب والسنة، وقواعد الفهم المعتمدة لدى أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان؛ وذلك لتمكين من خلال هذا المنهج من المواجهة السلفية المعاصرة لمشكلات عصرنا المتجددة، حيث لا نقصد بالسلفية الوقوف فحسب عند القضايا العقدية التي واجه بها سلفنا الصالح انحرافات عصرهم، وكانت فريضة الوقت يومئذ، ثم نتخلى عن المعارك الطاحنة التي تديرها الجاهلية في المجتمعات المعاصرة؛ حيث ضاعت إسلامية الراية وإسلامية النظم وذلك في أكثر بلدان المسلمين.

إن السلفية الحقة لا تقبل أن تستهدف الدعوة في بعض المواقع تحرير العقائد من شرك الأموات، والتمايم، وتضرب صفحاً عن شرك الأحياء والأوضاع والنظم؛ والتي لا تقل خطراً عن شرك الأصنام، وكلا الشركين خطير.

كما لا تقبل السلفية الحقة أن تحارب التشبيه والتعطيل في صفات الله عزوجل وتقف عند ذلك، ولا تعلن الحرب على تعطيل الشريعة، وتحكيم القوانين الوضعية، وفصل الدين عن الدولة، وإنما بهذا المنهج الشامل والسلفية المعاصرة، نسلم وتسلم عقيدتنا الثابتة من أي خلط أو اهتزاز، كما هو الحاصل في هذه الأيام، ولكنها الفتن؛ نعوذ بالله منها؛ ما ظهر منها وما بطن.

(١) المراد (بعصرية المواجهة) أن يواجه أصحاب المنهج السلفي في كل عصر ما يكون في عصرهم من بدع وشركيات ومنكرات سواء كانت لها جذور قديمة أو كانت جديدة لم يسبق لها نظير بعينها وإن كان إنكارها له أصل شرعي.

وما أحسن ما كتبه الأستاذ محمد قطب في كتابه القيم (واقعنا المعاصر) حول أهمية التربية والرد على من يستطول طريقها ويريد قطف الثمرة قبل استكمالها ، فقال ص ٤٨٦ : « أما الذين يسألون إلى متى نظل نربي دون أن (نعمل) <sup>(١)</sup> ؟ فلا نستطيع أن نعطيهم موعداً ؛ فنقول لهم : عشر سنوات من الآن أو عشرين سنة من الآن ! ، فهذا رجم بالغيب لا يعتمد على دليل واضح ، وإنما نستطيع أن نقول لهم : نظل نربي حتى تتكون القاعدة المطلوبة بالحجم المعقول . . . » ثم يستمر وفقه الله حول هذا الموضوع إلى أن قال : « . . . ونكتفي بثلاثة أبعاد ، نتقيها من بين أبعاد كثيرة ومجالات عديدة ؛ لأنها ذات أهمية خاصة ؛ وذلك بالنسبة لبناء القاعدة المطلوبة .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨] ، ولو أنك سألت أي إنسان في الطريق : من الذي يرزقك لقال لك على البديهة : الله ، ولكن انظر إلى هذا الإنسان إذا ضيق عليه في الرزق ، يقول : فلان يريد قطع رزقي ! فما دلالة هذه الكلمة ؟

دلالتها أن تلك البديهة ذهنية فحسب ، وبديهة تستقر في وقت السلم والأمن ، ولكنها تهتز إذا تعرضت للشدة ؛ لأنها ليست عميقة الجذور . . . فلا يصلح لتلك الأعباء إلا شخص قد استقر في قلبه إلى درجة اليقين أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، وأن الله هو المحيي المميت ، وأن الله هو الضار النافع ، وأن الله هو المعطي والمانع ، وأن الله هو المدبر ، وأن الله هو الذي بيده كل شيء . . .

تري كم جلسة ؟! كم درساً ؟! كم موعظة ؟! كم توجيهاً يحتاج إليها

(١) الكلام هنا موجه لأولئك الشباب المتحمس الذي ينقصه التربية والعلم الشرعي والإمكانات ومع ذلك يطالب بإعلان الجهاد ضد الأنظمة التي تنكرت لشرع الله واستحلت ما حرم الله .

الإنسان؟! ليرسخ في قلبه إلى درجة اليقين أن الله هو الذي يدبر ، وأن المخلوقات البشرية التي يخالطها في حياته إن هي إلا أدوات لقدر الله ، وأنها حين تضره فهو بشيء قد قدره الله له ، وحين تنفعه فإنما تنفعه بشيء قد كتبه الله له ، فلا يتوجه إلا إلى الله في سرائه وضرائه سواء ، ويعلم يقيناً أن الخلق كلهم لا يملكون له ولا لأنفسهم ضراً ولا نفعاً» اهـ .

الدرس الرابع : صحة الفهم وحسن القصد ودورهما في درء الفتنة :

في أيام الفتنة تضرب الأفهام ، وتختار العقول أمام الشبهات ، كما أن القلوب تضعف أمام الشهوات ، ولا يعصم منها إلا من عصمه الله تعالى بعلم صحيح ، وفهم دقيق يدرأ بهما الشبهات ، وبدين وتقوى وصبر يدرأ بها الشهوات ، فبالعلم واليقين تدرأ الشبهات ، وبالصبر وحسن القصد تدرأ الشهوات .

ولا يسلم من الفتنة ورياحها إلا من تحلى بهاتين الصفتين : الفهم الصحيح والقصد الصحيح ، ومن فقد إحدى هاتين الصفتين ؛ فقد عرض نفسه للفتنة ، ولقد تجلّت مظاهر فقد هذين الأمرين أو أحدهما في هذه الأيام ، أيام الأحداث والفتنة ، فسقط في هذه الفتنة من سقط ، وهلك فيها من هلك ، ولا تتعدى أسباب السقوط هذين الأمرين الأنفي الذكر ؛ فبضعف اليقين والبصيرة تسيطر الشبهات ، وبضعف التقوى وفساد المقصد تسيطر الشهوات .

وصحة اليقين والفهم يتمان بأمرين اثنين : بالعلم بدين الله عز وجل وأحكامه وشرعه ، وبالعلم بالواقع وأبعاده؛ فمن فرط في أي من هذين العلمين والفهمين فسد فهمه ، وعرض نفسه للشبهات ، وأخذ الباطل يحسبه حقاً .

أما من تحلى بالفهم بأحكام الله والفهم بالواقع ، ثم وقّع الأول على الثاني ؛ فقد تمت له البصيرة ، ووصل إلى الحق ، ولكن معرفة الحق لا تكفي في النجاة من الفتن حتى ينضم إليها التقوى والصبر وحسن القصد ، فينقاد إلى الحق الذي ظهر ويذعن له ، وإلا لو كان الصبر ضعيفاً أو القصد فاسداً ؛ فإن المسلم يتعرض للفتن من باب الشهوات ، فلا يصبر على الحق ، ويثبت عليه أمام المغريات والشهوات .

ولقد ساق الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى هذه المعاني بأوضح عبارة وأدقها وأبلغها؛ حيث قال رحمه الله تعالى في كتابه القيم (إعلام الموقعين)، في معرض شرحه لخطاب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في القضاء؛ فقال في شرحه لقول عمر: «فافهم إذا أدلي إليك»:

« صحة الفهم ، وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده ، بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما ، بل هما ساقا الإسلام ، وقيامه عليهما ، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم ، وطريق الضالين الذين فسدت فهمهم ، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت فهمهم وقصودهم ، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة .

وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد ، يميز به الصحيح والفساد ، والحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغني والرشاد ، ويمده حسن القصد ، وتحري الحق ، وتقوى الرب في السر والعلانية ، ويقطع مادته اتباع الهوى ، وإيثار الدنيا ، وطلب محمدة الخلق وترك التقوى .

ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم :



أحدهما : فهم الواقع والفقهاء فيه ، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات ، والعلامات حتى يحيط به علماً .

النوع الثاني : فهم الواجب في الواقع ؛ وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع ، ثم يطبق أحدهما على الآخر ، فمن بذل جهده ، واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجراً ، فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله<sup>(١)</sup> اهـ .

وبعد هذا الكلام المفيد من كلام الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ، وبعد النظر الدقيق للمواقف المضطربة إزاء الأحداث والفتن هذه الأيام ، وبعد خوض من خاض ، وهلاك من هلك فيها ، إما بقلبه أو لسانه أو يده ، يتبين لنا أن هناك خللاً في منهاج الدعوة عند بعض الدعاة ، ونقصاً في التربية ، لعل من دروس هذه الأحداث اكتشافنا لهذا الخلل حتى نتفاداه .

ويمكن مما سبق تلخيص هذا الخلل في النقاط التالية :

- ١ - عدم التربية على طلب العلم الشرعي من مصادره الصحيحة وأصوله المنضبطة .
- ٢ - عدم التربية على طلب العلم والفقهاء بالواقع ، والوعي الصحيح بسبيل المؤمنين فيه ، وبسبيل المجرمين .
- ٣ - هناك خلل في القلوب ، وفساد في القصور ، لا بد من تداركه ، والاهتمام بتزكية القلوب وتربيتها على الإخلاص لله عز وجل وإنشاء هم

(١) إعلام الموقعين (١/٨٧) .

الآخرة والزهد في الدنيا ، وعدم طلب محمدة الناس ، والتربية على الصبر والثبات أمام الشهوات والمغريات .

وعندما يتم التغلب على هذه الأنواع من الخلل ، ويربى الناس عليها ، وعلى طلبها ؛ فإنه بإذن الله تتم العصمة من الفتن وأخطارها ؛ فبالعلم بدين الله ، والعلم بالواقع تتقى الشبهات ، وبحسن القصد ، والإخلاص لله عز وجل والصبر أمام المغريات تتقى الشهوات ، والله أعلم .

وبعد :

فإن الدروس والحكم كثيرة وكثيرة ، وليس مقصود البحث هنا هو التفصيل فيها ، ولكن ذكرت بعض هذه العبر والحكم والمصالح من هذا الحادث المحيط بنا هذه الأيام ، لتتذكر من خلاله أن لأسماء الله عز وجل وصفاته لوازم ومقتضيات لا يتم الإيمان إلا بها ، ومن هذه الأسماء الكريمة اسم (الحكيم) ، والذي هو موضوع بحثنا في تفصيل لوازم هذا الاسم الجليل ، والتعرف على العبوديات التي يتضمنها ، والآثار التي يتركها في القلب والجوارح ، وما يلزم عليه من لوازم ومقتضيات ، ومنها ما تم استعراضه من الدروس الماضية ، لحدث واحد مما يقضيه الله عز وجل ويقدره ، من بين أحداث وأحداث كثيرة ، وكثيرة تصغر في حجمها وتكبر ، ولكنها كلها لا تخرج عن علم الله عز وجل وتقديره ، ولا تخرج عن حكمته البالغة وتيسيره .

## الخانمة

لقد تبين من خلال هذه الدراسة السريعة أن الإيمان بأسماء الله عز وجل وصفاته تقتضي إثباتها له سبحانه على الوجه الذي يليق به وعظمته من غير تكييف ولا تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل ، كما أن الإيمان بأسماء الله عز وجل وصفاته تقتضي التعبد لله سبحانه وتعالى بها والإيمان بلوازمها .

ولقد اخترت في هذه الدراسة اسمين من أسماء الله عز وجل الجليلة هما ( العليم والحكيم ) وفصلت في الثاني وما فيه من العبوديات في اسم واحد من أسماء الله عز وجل ، فكيف ببقية أسمائه سبحانه الحسنی وصفاته العلی؟ .

إنني أتوجه في نهاية هذه الدراسة إلى علمائنا ، وأرباب التوجيه والتربية ، بأن يولوا هذا الجانب المهم من أسماء الله عز وجل عناية كبيرة في دروسهم وحلقاتهم التعليمية ، وأن تتم التربية من خلاله على تقوية الإيمان وتجريد التوحيد لله والثبات على الإسلام ، والجهاد في سبيله ، وألا يقفوا في دراسة توحيد الأسماء والصفات على الجوانب الذهنية المجردة أو الردود على أهل البدع والأهواء فقط ، وإنما يجمعون - في دراسة هذا الجانب المهم من توحيد الله عز وجل - بين الجانب العلمي والعملية والتعبدية .

أسأل الله عز وجل أن يحسن فهمنا ومقاصدنا وختامنا ، والله أعلم .

وصلی الله وسلم على نبینا محمد وآله وصحبه .



الرسالة الخامسة

مَتَى نَصَرَ اللَّهُ

[ البقرة : ٢١٤ ]

عَبْدُ الْغَيْزِ بْنِ شَاصِرِ الْمُجَلَّبِيِّ



## متى نصر الله

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

لا ريب أن من أعز مقاصد المؤمنين وأشهى مطالبهم وغاية نفوسهم : رؤية دينهم ظاهراً وكتابهم مهيمناً وعلو راية التوحيد خفاقة مع قهر أهل الكفر والطغيان وإذلالهم .

إن هذا الهدف الأعظم وتلك الأمنية السامية لا تتحقق عن طريق الدعاوى والأمانى بل عن طريق البحث والتنقيب عن سنن الله في النصر ، تلك السنن الربانية التي قدرها - تبارك وتعالى - لنصر حزبه الموحدين وخذلان حزب الشيطان اللعين .

فيجب علينا معشر المؤمنين حتى نحقق صدق الدعوة ونقيم عليها البينة العادلة أن نتعرف على تلك السنن وطبيعة الصراع وحجم التكاليف وشراسة الأعداء ومباينة السبل واختلاف المناهج والغايات والتوجهات بين المؤمنين والكافرين ، حتى نقضي على فرية وحدة الأديان وتوحيد الرايات والالتقاء في الطريق تحت ستار الأسرة الواحدة والشرعية الدولية .

إن دين الله- الذي اصطفاه لنا ولا يعبد إلا به- يقتضي أن يكون- جل شأنه- حاكماً لا معقب لحكمه ، وأن يوحد بالعبادة والتلقي والتوجه وأن يفرد بالولاء ، مع الكفر والبراءة والانخلاع من كل ما يعبد من دونه .

ومن هنا وجب إعداد العدة والأخذ بالسنن الربانية لتحقيق النصر المأمول مع الحذر الشديد من العوائق الداخلية والأمراض الفتاكة التي تفتك بجسد الأمة وتسلمها فريسة سهلة لأعدائها لتحول بينها وبين غايتها العظمى ودورها المنشود المناط بها ، بل المدقق في تلك العوائق الداخلية ليتيقن أنها الأساس المنيع الذي تستمد منه العوائق الخارجية وجودها وهيمتها .

إن الله- عز وجل- بعلمه الشامل وحكمته البالغة قدر وقضى أن يكون الصراع بين الحق والباطل موجوداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وأما عن طبيعة هذا الصراع : فسمته أنه حرب ضروس لن يخمد لهيبها إلى قيام الساعة . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ [البقرة: ٢١٧] ، ولا يخفى ما تحويه لفظة : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ ﴾ من الاستمرارية والبقاء دون انقطاع ، ولهذا جاء الأمر واضحاً من العليم الحكيم لأوليائه : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩] ، والفتنة لن تخلو منها الأرض ، بل الساعة تقوم على شر أهلها .

وكذلك أخبر النبي ﷺ بأن : « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة »<sup>(١)</sup> .

هذه السنة الربانية قد خص بها حشد من النصوص المستفيضة حتى

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٥٠)، وفي المناقب (٣٦٤٤).



بلغت حد التواتر اللفظي والمعنوي ، وغدت من المعلوم بالاضطرار من هذا الدين وأصبح المكذب بها مكذباً بالدين طاعناً على رب العالمين متبعاً غير سبيل المؤمنين .

وهذا من أبلغ الحجج والبراهين على دحض افتراءات العلمانيين والمنافقين-الذين وقفوا على طريق جهنم وأعلوا رايتهم ملوحين بها للناس أن هلموا إلينا ليقذفوهم فيها- الذين يزعمون ويفترون بأن الحرب الدينية اليوم قد انتهت ، وحرى بالعالم أجمع أن يجتمع تحت راية واحدة وأن يكونوا كالجسد الواحد المتجانس الشعور والإحساس ولا تحول معتقداتهم دون هذا البتة ، بل يجب أن تبقى هذه المعتقدات حبيسة القلوب وحبيسة دور العبادة والمحارِب ولا تتعدى جدرانها ولا تتخطى حدودها !!

ومن المعلوم أن الخصوم في حروبها تلجأ إلى ناصر وولي ومعين ، تحتمي بحماه وتقهر بقوته وتعتر بعزته ، فالله - جل شأنه - لم يرتض لأوليائه ناصرأ سواه ولا ولياً دونه ولا معيناً عداه ، قال تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧] ، وقال سبحانه : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١] .

ومن هنا وجب علينا معشر المسلمين وأمة التوحيد أن نتوكل على مولانا وناصرنا ، ونعي آثار أسمائه الحسنی وصفاته العليا ، فنتعبد لله بها وتظهر في القلوب آثارها فتطمئن لوعده الله وتثق بنصره ، حتى ولو صال الباطل وانتفش في وقت من الأوقات ، فإن المؤمن يوقن أن ما قدره الله هو الخير ويحوي في طياته الرحمة والنعمة وإن كان ظاهره الألم والمشقة ، ذلك أن رحمة الله سبحانه قد سبقت غضبه وأن الشر ليس إلى الله عز وجل .

إن معبود وولي المؤمنين هو الجبار القوي : الذي لا يعجزه شيء .  
 العزيز : فلا يغلبه شيء . المتكبر : الذي تكبر عن السوء والظلم . الرحمن :  
 الذي هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها . العليم : فلا يخفى عليه شيء ،  
 والسر والجره عنده سواء لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في  
 الأرض . الحكيم : في أفعاله وقدره وأحكامه . القدير : فالسماوات  
 مطويات بيمينه والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، ما قدره أولياؤه حق  
 قدره فضلاً عن أعدائه . المحييط : بظلم الظالمين ومكر الماكرين لا يفوته شيء .  
 العليّ : قد علا على كل شيء دونه وتحت قهره وغلبته .  
 يقول ابن القيم رحمه الله :

«وكذلك اسمه السلام : فإنه الذي سلم من العيوب والنقائص . ووصفه  
 بالسلام أبلغ في ذلك من وصفه بالسالم ، ومن موجبات وصفه بذلك  
 سلامة خلقه من ظلمه لهم . فسلم سبحانه من إرادة الظلم والشر ، ومن  
 التسمية به ، ومن فعله ، ومن نسبه إليه . فهو السلام من صفات النقص  
 وأفعال النقص وأسماء النقص ، المسلم لخلق من الظلم . ولهذا وصف  
 سبحانه ليلة القدر بأنها سلام ، والجنة بأنها دار السلام ، وتحية أهلها  
 السلام . وأثنى على أوليائه بالقول السلام . كل ذلك السالم من العيوب .  
 وكذلك الكبير من أسمائه ، والمتكبر .

قال قتادة وغيره : هو الذي تكبر عن السوء . وقال أيضاً : الذي تكبر  
 عن السيئات . وقال مقاتل : المتعظم عن كل سوء . وقال أبو إسحق :  
 الذي يكبر عن ظلم عباده . وكذلك اسمه العزيز الذي له العزة التامة . ومن  
 تمام عزته براءته عن كل سوء وشر وعيب ، فإن ذلك ينافي العزة التامة .

كذلك اسمه العليّ الذي علا عن كل عيب وسوء ونقص . ومن كمال علوه أن لا يكون فوقه شيء . بل يكون فوق كل شيء .

وكذلك اسمه الحميد ، وهو الذي له الحمد كله ، فكمال حمده أن لا ينسب إليه شر ولا سوء ولا نقص لا في أسمائه ولا في أفعاله ولا في صفاته . فأسماءه الحسنى تمنع نسبة الشر والسوء والظلم إليه ، مع أنه سبحانه الخالق لكل شيء ، فهو الخالق للعباد وأفعالهم وحركاتهم وأقوالهم .

والعبد إذا فعل القبيح المنهيّ عنه كان قد فعل الشر والسوء . والرب سبحانه هو الذي جعله فاعلاً لذلك . وهذا الجعل منه عدل وحكمة وصواب ، فجعله فاعلاً خيراً ، والمفعول شر قبيح ، فهو سبحانه بهذا الجعل قد وضع الشيء موضعه لما له في ذلك من الحكمة البالغة التي يُحمد عليها ، فهو خير وحكمة ومصلحة ، وإن كان وقوعه من العبد عيباً ونقصاً وشرّاً وهذا أمر معقول مشاهد .

فإن الصانع الخبير إذا أخذ الخشبة العوجاء والحجر المكسور واللبنة الناقصة فوضع ذلك في موضع يليقُ به ويناسبه كان ذلك منه عدلاً وصواباً يمدح به ، وإن كان في المحل عوجٌ ونقصٌ وعيبٌ يذمُّ به المحل . ومن وضع الخبائث في موضعها ومحلها اللائق بها كان ذلك منه حكمةً وعدلاً وصواباً . وإنما السفه والظلم أن يضعها في غير موضعها . فمن وضع العمامة على الرأس ، والنعل في الرجل ، والكحل في العين ، والزبالة في الكناسة ، فقد وضع الشيء موضعه ، ولم يظلم النعل والزبالة إذ هذا محلُّهما .

ومن أسمائه سبحانه العدل والحكيم الذي لا يضع الشيء إلا في موضعه ، فهو المحسن الجواد الحكيم العدل في كل ما خلقه وفي كل ما وضعه

في محله وهياً له . وهو سبحانه له الخلق والأمر . فكما أنه في أمره لا يأمر إلا بأرجح الأمرين ، ويأمر بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفسد وتقليلها ، وإذا تعارض أمران رجح أحسنهما وأصلحهما . وليس في الشريعة أمر يفعل إلا ووجوده للمأمور خير من عدمه ، ولا نهى عن فعل إلا وعدمه خير من وجوده»<sup>(١)</sup> اهـ .

وقد قضى الله سبحانه وتعالى بأن البقاء للحق ؛ لأنه الأصل الذي قامت عليه السماوات والأرض وأما الباطل فهو طارئ وزاهق ، قال تعالى : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١] ، وقال سبحانه : ﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧] .

ولكن حكمة الله عز وجل البالغة اقتضت أن يوجد الباطل لاختبار أوليائه وإظهار آثار أسمائه الحسنى وصفاته العلى وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً ، وإلا لو شاء الله عز وجل لم يكن هناك كفر ولا باطل . قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ [محمد: ٤] .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والرضا بالقضاء الكوني القدرى ، الجارى على خلاف مراد العبد ومحبته - مما لا يلائمه ، ولا يدخل تحت اختياره - مستحب . وهو من مقامات أهل الإيمان وفي وجوبه قولان ، وهذا كالمرض والفقر ، وأذى الخلق له ، والحر والبرد ، والآلام ونحو ذلك .

(١) شفاء العليل . ص ٣٨٠ .

والرضا بالقدر الجاري عليه باختياره - مما يكرهه الله ويسخطه ، وينهى عنه - كأنواع الظلم والفسوق والعصيان : حرام يعاقب عليه . وهو مخالفة لربه تعالى . فإن الله لا يرضا بذلك ولا يحبه . فكيف تتفق المحبة ورضا ما يسخطه الحبيب ويبغضه ؟ فعليك بهذا التفصيل في مسألة الرضا بالقضاء .

فإن قلت : كيف يريد الله سبحانه أمراً لا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويكوّنه؟ وكيف تجتمع إرادة الله له وبغضه وكرهيته ؟

قيل : هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقاً ، وتباينت عنده طرقهم وأقوالهم .

فاعلم أن « المراد » نوعان : مراد لنفسه ، ومراد لغيره .

فالمراد لنفسه : مطلوب محبوب لذاته ولما فيه من الخير ، فهو مرادٌ إرادة الغايات والمقاصد .

والمراد لغيره : قد لا يكون في نفسه مقصوداً للمريد ، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته . وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده . فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته ، ومراد له من حيث إفضائه وإيصاله إلى مراده . فيجتمع فيه الأمران : بغضه ، وإرادته ، ولا يتنافيان ، لاختلاف متعلقهما ، وهذا كالدواء المتناهي في الكراهية ، إذا علم تناوله أن فيه شفاء ، وكقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسده ، وكقطع المسافة الشاقة جداً إذا علم أنها توصله إلى مراده ومحبوبه . بل العاقل يكتفي في إشار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب ، وإن خفيت عنه عاقبته ، وطويت عنه مغبته ، فكيف بمن لا تخفى عليه العواقب ؟ فهو سبحانه وتعالى يكره الشيء ويبغضه في

ذاته . ولا ينافي ذلك إرادته لغيره ، وكونه سبباً إلى ما هو أحب إليه من فوته .

مثال ذلك : أنه سبحانه خلق إبليس ، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال ، والاعتقادات والإرادات ، وهو سبب شقاوة العبيد ، وعملهم بما يغضب الرب تبارك وتعالى ، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه بكل طريق وكل حيلة ، فهو مبعوض للرب سبحانه وتعالى ، مسخوط له ، لعنه الله ومقتته ، وغضب عليه ، ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه ، وجودها أحب إليه من عدمها .

\* منها : أن تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات . وذلك من أدل الدلائل على كمال قدرته وعزته ، وسلطانه وملكه ، فإنه خلق هذه المتضادات ، وقابل بعضها ببعض ، وجعلها محال تصرفه وتدييره وحكمته . فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته ، وكمال تصرفه وتدييره مملكته .

\* ومنها : ظهور آثار أسمائه القهرية ، مثل ( القهار ، والمنتقم ، والعدل ، والضار ، وشديد العقاب ، وسريع الحساب ، وذو البطش الشديد ، والخافض ، والمذل ) فإن هذه الأسماء والأفعال كمال . فلا بد من وجود متعلقها ولو كان الخلق كلهم على طبيعة الملك : لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال .

\* ومنها : ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ، ومغفرته وستره ، وتجاوزته عن حقه ، وعتقه لمن شاء من عبيده . فلولا خلق ما يكره من

الأسباب المفضية إلى شهود آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله : « لو لم تذنّبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم »<sup>(١)</sup> .

\* ومنها : ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة ، فإنه سبحانه « الحكيم الخبير » الذي يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها اللاتئة بها ، فلا يضع الشيء في غير موضعه ، ولا ينزله غير منزلته ، التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته ، فلا يضع الحرمان والمنع موضع العطاء والفضل ، ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع ، ولا الثواب موضع العقاب ، ولا العقاب موضع الثواب ، ولا الخفض موضع الرفع ، ولا الرفع موضع الخفض ، ولا العز مكان الذل ، ولا الذل مكان العز ، ولا يأمر بما ينبغي النهي عنه ، ولا ينهى عما ينبغي الأمر به .

فهو أعلم حيث يجعل رسالته ، وأعلم بمن يصلح لقبولها ، ويشكره على انتهائها إليه ووصولها ، وأعلم بمن لا يصلح لذلك ويستأهله ، وأحكم من أن يمنعها أهلها ، وأن يضعها عند غير أهلها .

فلو قُدر عدم الأسباب المكروهة البغيضة له لتعطلت هذه الآثار ، ولم تظهر لخلقها ، ولفاتت الحكم والمصالح المترتبة عليها ، وفواتها شر من حصول تلك الأسباب .

فلو عطلت تلك الأسباب - لما فيها من الشر - لتعطل الخير الذي هو أعظم

(١) رواه أحمد بن حنبل (٢٨٩/١) ، وله شواهد في السلسلة الصحيحة (٩٧٠) .

من الشر الذي في تلك الأسباب . وهذا كالشمس والمطر والرياح التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر والضرر ، فلو قدر تعطيلها - لثلا يحصل منها ذلك الشر الجزئي - لتعطل من الخير ما هو أعظم من ذلك الشر بما لانسبة بينه وبينه .

\* ومنها : حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت ، وكان الحاصل بعضها ، لا كلها . فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه ، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها : من الموالاة فيه سبحانه ، والمعاداة فيه ، والحب فيه والبغض فيه ، وبذل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى ، وإيثار محاب الرب على محاب النفس .

\* ومنها : عبودية التوبة ، والرجوع إليه واستغفاره ، فإنه سبحانه يحب التوابين ويحب توبتهم ، فلو عطلت الأسباب التي يتاب منها لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها .

\* ومنها : عبودية مخالفة عدوه ، ومراغمته في الله وإغاظته فيه ، وهي من أحب أنواع العبودية إليه ، فإنه سبحانه يحب من وليه أن يغيظ عدوه ويراغمه ويسوءه ، وهذه عبودية لا يتفطن لها إلا الأكياس .

\* ومنها : أن يتعبد له بالاستعاذة من عدوه ، وسؤاله أن يجيره منه ، ويعصمه من كيده وأذاه .

\* ومنها : أن عبیده يشتد خوفهم وحذرهم إذا رأوا ما حلَّ بعدوه



بمخالفته وسقوطه من المرتبة الملكية إلى المرتبة الشيطانية ، فلا يُخلدون إلى غرور الأمل بعد ذلك .

\* ومنها : أنهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته ، الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة . فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة على مخالفته .

\* ومنها : أن نفس اتخاذه عدواً من أكبر أنواع العبودية وأجلها . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر : ٦] ، فاتخاذه عدواً أنفع شيء للعبد ، وهو محبوب للرب .

\* ومنها : أن الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر ، والطيب والخبِيث ، وذلك كامن فيها كمنون النار في الزناد . فخلق الشيطان مستخرجاً لما في طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل ، وأرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل ، فاستخرج أحكم الحاكمين ما في قوى هؤلاء من الخير الكامن فيها ، ليترتب عليه آثاره ، وما في قوى أولئك من الشر ، ليترتب عليه آثاره ، وتظهر حكمته في الفريقين ، وينفذ حكمه فيهما ، ويظهر ما كان معلوماً له مطابقاً لعلمه السابق «<sup>(١)</sup>» اهـ .

إن المتأمل اليوم في عصرنا الحاضر وما فيه من الصراعات ، يجد أن الصراع بين الحق والباطل قد بلغ أشده ، وأن ملل الكفر قد جمعت كل إمكانياتها ضد عدو واحد ألا وهو الإسلام ودعواته الصادقون الذين يصفونهم تارة بالمتطرفين وتارة بالأصوليين وتارة بالإرهابيين .

وإن المراقب للأحداث التي ظهرت في السنوات الأخيرة وبالذات

(١) مدارج السالكين (٢/١٩٧) .

بعد أحداث الخليج ونشوء ما يسمى النظام العالمي الجديد<sup>(١)</sup> ليلاحظ أنها

(١) النظام العالمي الجديد : هذا المصطلح - الذي يحمل في طياته الكثير من الخبث والمكر للإسلام والمسلمين - قد اصطلح عليه أئمة الكفر من اليهود والنصارى والشيوعيين لزيادة النكاية بالمسلمين والعمل الدؤوب لمنع ظهور الإسلام مسيطراً ومهيماً لأداء دوره المنشود . ومضمون هذا المصطلح : أن يكون العالم بأسره - على اختلاف ملله - تحت راية واحدة يوالي ويعادي من أجلها وتلك الياية بكل وضوح هي راية الصليب تحت ستار الأمم المتحدة - التي لم تتحد إلا على ضرب الإسلام وتمزيق أهله وإعلاء راية الكفر والطغيان - والقائمون على رأس هذا النظام من اليهود النصارى والمشركين لهم حق الحكم والقرارات والفصل في شتى المنازعات والخصومات بين كافة الدول والملل والمجتمعات دون حق التعقيب عليها من أحد ! بل على العالم أجمع الانصياع التام والعبودية الكاملة والطاعة المطلقة لتلك الطائفة الحاكمة .

وأما عن حكم هذا النظام الخبيث : فمن المعلوم بالاضطرار من الدين : أن كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت ، وهذا الحد متوفر في هذا النظام الخبيث لا استباحته حق التشريع وسن القوانين والحكم بما شاء من غير تقيد أو امتثال لحدود الله سبحانه التي حدها في كتابه وسنة رسوله ﷺ وهذا هو لب العبادة وأصلها . والدليل على ذلك : حديث عدي بن حاتم - رضي الله عنه - عندما أقسم بالله للنبي ﷺ أنهم - أي أهل الكتاب - ما وقعوا في عبادة الأحرار والرهبان ، فاحتج النبي ﷺ بوجود أصل العبادة ولبها ، فقال : « ألم يحلوا لكم الحرام ، ويحرموا عليكم الحلال فاتبعتموهم » قال : بلي . قال : « فتلك عبادتكم إياهم » . وقال القرآن في حقهم : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣١] .

فتلك الأمة عندما أنزلت أحبارها ورهبانها منزلة ربه في التحليل والتحريم والتشريع من دونه خرجت بذلك عن عبادة ربه إلى عبادة الأحرار والرهبان . فكيف بمن يتخذ أحبار ورهبان وأئمة الكفر لمة لا يدين بها أرباباً من دون الله !!؟

أما عن كيفية الكفر والبراءة من هذا الطاغوت : فيجب على كل مسلم أن يعلن الكفر والبراءة من هذا الطاغوت والانخلاع من طاعته في شريعته امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ولا يكفي هذا حتى يعادي عباد هذا الطاغوت ويظهر لهم العداوة والبغضاء أبداً حتى يكفروا به ويؤمنوا بالله وحده ، قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

تتسم بسمتين رئيسيتين هما :

١- التسارع الشديد والمفاجآت التي تصحبها، إلى حد أن المتابع لهذه الأحداث لا يفتأ يسمع بحدث ويبحث عن الموقف منه إلا وتفجؤه أحداث أخر تنسيه أو تشغله عن الحدث الأول .

٢- إن أغلب هذه الأحداث- إن لم نقل كلها- تقع في المنطقة الإسلامية وأن المسلمين فيها هم المستهدفون بالدرجة الأولى .

إن هذا الصراع الذي نعيشه في الآونة الأخيرة قد رجحت فيه قوة الكفر والكافرين- لحكمة يعلمها الله عز وجل ، كما سبق أن بينا- فاستباحوا بذلك ديار المسلمين ودماءهم و أعراضهم وبلغ المسلمون من الذلة والمهانة واستخفاف أعدائهم بهم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل .

وفي ظل هذه الحملة الشرسة على ديار المسلمين ودينهم وأعراضهم صار الكثير من الدعاة إلى الله عز وجل يتساءلون مع بعضهم أو مع أنفسهم .

أما أن لهذه المهانة أن تنقشع ؟ متى ينجلي هذا الليل الطويل الذي ناء تحت كللكه كل مسلم غيور يهمله أمر هذا الدين ؟ متى يبزغ فجر الإسلام ؟ وبشكل عام ظهر سؤال كبير ألا وهو ذاك السؤال الذي سألته الرسول ﷺ والذين آمنوا معه بعدما أصابتهم البأساء والضراء وزلزلوا فقالوا : متى نصر الله ؟

قال الله تعالى واصفاً هذه الحالة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤] .

من أجل ذلك جاءت هذه الدراسة المتواضعة في محاولة للإجابة على هذا السؤال الكبير من حيث المنهج لا من حيث الموعد ، لأن الموعد قريب إن شاء الله ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ، ولكن المهم هو الطريق المؤدي إليه .  
أسأله سبحانه أن يلهمنا رشدنا وأن يرزقنا السداد في القول والعمل .

\* \* \*

## • سنن الله عز وجل في النصر •

لابد لمن يريد نصرة دين الله عز وجل والتمكين له في الأرض أن يتعرف على سنن الله تعالى في نصرة دينه ، وبدون هذه المعرفة لن يتم الاهتداء إلى الطريق ، وبالتالي ستضيع الأوقات والجهود ولما يأت نصر الله .

ومن هذه السنن ما ورد في الآيات التالية من كتاب الله عز وجل :

السنة الأولى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] .

السنة الثانية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

[الرعد : ١١]

السنة الثالثة : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾

[محمد : ٣٨]

وتفصيل هذه السنن فيما يلي .

\* \* \*

## السنة الأولى

إن نصر الله عز وجل لدينه وعباده المؤمنين أت لا محالة وإن التمكين للإسلام في الأرض سيتم بعز عزيز أو بذل ذليل ، هذا وعد الله سبحانه والله لا يخلف الميعاد ، يقول الله سبحانه : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١].

ويقول تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور: ٥٥].

ويقول سبحانه : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

[المجادلة: ٢١]

وقال عز من قائل : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

والآيات في هذا المعنى كثيرة ، كما أن الوعد بنصرة دين الله عز وجل جاء على لسان رسوله ﷺ حيث قال : « إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغاربتها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها »<sup>(١)</sup> ، وقال ﷺ : « ليبغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا

(١) رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩).

أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يُذل به الكفر»<sup>(١)</sup>، وقال ﷺ : « تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاضاً ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت»<sup>(٢)</sup>.

يقول الإمام ابن كثير - رحمه الله تعالى - عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١].

«أي : قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبذل بأن النصر له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة ﴿ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥١ ، ٥٢]. وقال هاهنا : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي : كتب القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه وهذا قدر محكم وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة» اهـ<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه أحمد (٤/١٠٣)، وهو في السلسلة الصحيحة (٣).

(٢) رواه أحمد (٤/٢٧٣)، وهو في السلسلة الصحيحة (٥).

(٣) تفسير ابن كثير ، سورة المجادلة ، الآية : ٢١ .

ويقول رحمه الله تعالى عند تفسيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا  
وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ الآية :

«قد أورد أبو جعفر ابن جرير رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّا  
لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ سؤالاً ، فقال : قد علم أن بعض  
الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه كيحيى وزكريا وشعيا ، ومنهم  
من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم ، وإما إلى السماء كعيسى .  
فأين النصرة في الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين :

أحدهما : أن يكون الخبر خرج عاماً والمراد به البعض فإن هذا سائغ في  
اللغة .

والثاني : أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم وسواء كان  
ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم ، كما فعل بقتلة يحيى وزكريا  
وشعيا سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم .

وقد ذكر أن النمرود أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وأما الذين راموا  
صلب المسيح عليه السلام من اليهود فسلط عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم  
وأظهرهم الله تعالى عليهم ، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم عليه  
الصلاة والسلام إماماً عادلاً وحاكماً مقسطاً فيقتل المسيح الدجال وجنوده  
من اليهود ، ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية فلا يقبل إلا  
الإسلام ، وهذه نصرة عظيمة .

وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه ، أنه ينصر عباده



المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله تبارك وتعالى : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب »<sup>(١)</sup> ، وفي الحديث الآخر : «إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب» ، ولهذا أهلك الله عز وجل قوم نوح ، وعاداً ، وثمود ، وأصحاب الرس ، وقوم لوط ، وأهل مدين ، وأشباهم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق ، وأنجى الله تعالى من بينهم المؤمنين فلم يهلك منهم أحداً ، وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحداً ، قال السدي : لم يبعث الله عز وجل رسولا قط إلى قوم فيقتلونه ، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق يُقتلون ، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم و يطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا . قال : فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها .

وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه ؛ فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان ، وأمره بالهجرة من بين ظهرائي قومه إلى المدينة النبوية ، وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً ، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم ، وخذلهم ، وقتل صناديدهم ، وأسر سراتهم ، فاستاقهم مقرنين في الأصفاد ، ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم ، ثم بعد مدة قريبة فتح عليهم مكة ، فقرت عينه ببلده ، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم ، فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك ، وفتح به اليمن ، ودانت له جزيرة العرب بكمالها ، ودخل

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) .

الناس في دين الله أفواجاً، ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله عز وجل ، ودعوا عباد الله تعالى إلى الله جل وعلا ، وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها ، ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا ... ﴾ الآية، أي: يوم القيامة يكون النصر أعظم وأكبر وأجل <sup>(١)</sup> اهـ .

ويقول سيد قطب - رحمه الله تعالى - حول هذا المعنى : « إن وعد الله واقع وكلمة الله قائمة ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) ﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصفات ١٧١-١٧٣] هذه هي الحقيقة في كل دعوة لله يخلص فيها الجند ويتجرد لها الدعاة أنها غالبية منصوره مهما وضعت في سبيلها العوائق وقامت في طريقها العراقيل ، ومهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار وقوى الدعاية والافتراء، وقوى الحرب والمقاومة ، وإن هي إلا معارك تختلف نتائجها ثم تنتهي إلى الوعد الذي وعده الله لرسله والذي لا يخلف ، ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه ؛ الوعد بالنصر والغلبة والتمكين ، هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية ، سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دورتها المنتظمة ، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان ، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء ، ولكنها مرهونة بتقدير الله يحققها حين يشاء » .

(١) تفسير ابن كثير ، سورة غافر ، الآية : ٥١ .

إلى أن يقول رحمه الله تعالى : « المؤمن يتعامل مع وعد الله على أنه الحقيقة الواقعة فإذا كان الواقع الصغير في جيل محدود أو في رقعة محدودة يخالف تلك الحقيقة فهذا الواقع هو الباطل الزائل الذي يوجد فترة في الأرض لحكمة خاصة لعل منها استجاشة الإيمان وإهاجته لتحقيق وعد الله في وقته المرسوم، وحيث ينظر الإنسان اليوم إلى الحرب الهائلة التي شنها أعداء الإيمان على أهل الإيمان في صورها المتنوعة من بطش ومن ضغط ومن كيد بكل صنوف الكيد في عهود متطاولة بلغ في بعضها من عنف الحملة على المؤمنين أن قتلوا وشردوا وعذبوا وقطعت أرزاقهم وسلطت عليهم جميع أنواع النكاية ، ثم بقي الإيمان في قلوب المؤمنين يحميهم من الانهيار ويحمي شعوبهم كلها من ضياع شخصيتها وذوبانها في الأم الهاجمة عليها ومن خضوعها للطغيان الغاشم إلا ريثما تنقض عليه وتحطمه ، حين ينظر الإنسان إلى هذا الواقع في المدى المتطاول يجد مصداق قول الله تعالى ، يجده في هذا الواقع دون الحاجة إلى الانتظار الطويل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿ [المجادلة : ٢٠ ، ٢١]

وعلى كل حال فلا يخالغ المؤمن شك في أن وعد الله هو الحقيقة الكائنة التي لا بد أن تظهر في الوجود .

إن وعد الله قاطع جازم ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [غافر : ٥١] بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ومنهم من يلقي في الأحدود ومنهم من يستشهد ومنهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد، فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا ؟ ويدخل الشيطان في النفوس من

هذا المدخل ، ويفعل بها الأفاعيل ، ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير!!

إن الناس يعيشون فترة قصيرة من الزمان وحيز محدود من المكان ، وهي مقاييس بشرية صغيرة ، فأما المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان ولا يضع الحدود بين عصر وعصر ولا بين مكان ومكان ، ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان في هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك ، وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها ، فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها ، وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم وبرزوها»<sup>(١)</sup> اهـ .

مما سبق يتبين لنا أهمية اليقين بوعد الله عز وجل في نصرته أوليائه ، وأنه آت لا محالة ، فإذا تأخر نصر الله عز وجل ، واشتد الكرب على المؤمنين بتسليط أعدائهم عليهم فإن هذا لا يعني عدم تحقق وعد الله وعدم مجيء نصره سبحانه ، ولكن لتأخره حكم وأسباب ، فبدلاً من اليأس من وعد الله عز وجل بالنصر يجب أن يتوجه البحث والتفكير عن أسباب تأخره التي يجب أن يتوجه الجهد لإزالتها ، وإيجاد المناخ والأسباب التي تهيب لنصر الله عز وجل .

وقد ذكر سيد قطب - رحمه الله تعالى - بعض الأمور التي قد يتأخر نصر الله عز وجل بسببها فقال :

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن، ص ٣٥٤ .

\* «والنصر قد يبطل لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها ، ولم يتم بعد تمامها ، ولم تحشد بعد طاقاتها ، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات ، فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً . .

\* وقد يبطل النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة ، وآخر ما تملكه من رصيد فلا تستبقي عزيزاً ولا غالياً ، لا تبذله هيناً رخيصاً في سبيل الله . .

\* وقد يبطل النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها ، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر . . إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله . .

\* وقد يبطل النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة ، فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر معها قرار ، فيظل الصراع قائماً حتى تنهياً النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ولاستبقائه .

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله ، قد يبطل النصر ، فتضعف التضحيات وتتضاعف الآلام ، مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية ، وللنصر تكاليفه وأعباءه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه ، وأداء ثمنه ، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه . .

\* وقد يبطل النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ، وهي تعاني وتتألم

وتبذل ، ولا تجد لها سنداً إلا الله ولا متوجهاً إلا إليه وحده في الضراء . . وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله .. فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها الله به . .

\* وقد يبطن النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته ، فهي تقاتل لمغنم تحققه ، أو تقاتل حمية لذاتها ، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها ، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله ، بريئاً من المشاعر الأخرى التي تلبسه .

وقد سئل رسول الله ﷺ : الرجل يقاتل حمية ، والرجل يقاتل شجاعة ، والرجل يقاتل ليرى ، فأيهما في سبيل الله ؟ فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »<sup>(١)</sup> .

\* كما قد يبطن النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصاً ، ويذهب وحده هالكاً ، لا تلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار . .

\* وقد يبطن النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً ، فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه ، لم يقتنعوا بعد بفساده وضروره زواله ، فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة ، فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى

(١) متفق عليه .

يتكشف عارياً للناس ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية»<sup>(٢)</sup> اهـ .

\* \* \*

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن ، ص ٣٥٩ .

تنبيه : حول وجوب تعرية الباطل نقول : نعم لن تقوم لنا قائمة ويسود ديننا - الذي اصطفاه الله لنا - قبل تعرية الباطل والكشف عن وجهه الخبيث ، فكم من أناس من جلدتنا ويتكلمون بألستنا أجسادهم أجساد إنس وقلوبهم قلوب شياطين ، دعاة على أبواب جهنم من قبل دعوتهم قذفوه فيها . وقد كان دور هؤلاء الشياطين : ضرب الدين بالدين وتزييف الحقائق وقلب الموازين ، فهم يُحسِّنون كل قبيح ، ويُقَبِّحون كل حسن . كل هذا عن طريق لي أعناق النصوص تارة ، وعن طريق التحريف لها تارة ، وعن طريق التحلل التام من قيودها تارة أخرى . ومن صور قلبهم للحقائق : أن أخرجوا الوثنية في ثوب التوحيد ، والبدعة في لباس السنة ، وموالة اليهود والنصارى تحت شعار التعايش السلمي ، والإخاء ووحدة الأديان ، وكذلك المعاصي والفجور تحت ستار الرقي والتقدم ، والقضاء على حاكمية القرآن لإنهاء التخلف والجمود والرجعية ، وإحلال رايات وثنية - مثل القومية العربية والوطنية والعلمانية - محل راية التوحيد ، وكذا التولي والخذلان والمهانة مكان الجهاد والنصرة والعزة . . هؤلاء الشياطين وأعاونهم يجب فضحهم ، وكشف خبث طويتهم وحقدهم اللثيم على الإسلام والمسلمين ، حتى تكفر بهم الأمة ، وتبرأ إلى الله منهم ، وتعلم الشعوب كم كانت ضحية لهؤلاء الشياطين يتاجرون بهم لتحقيق مآربهم وحظوظ نفوسهم ، وليعلم الدعاة إلى الله أن فضح وتعرية هؤلاء من أعز مقاصد التشريع امتثالاً لقول مولانا : ﴿ وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِنَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ، وتحقيقاً لقول الله عز وجل : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتَةِ وَيْحِي مَنْ حَيَّ عَن بَيْتَةِ ﴾ .

## السنة الثانية

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]

إن كثيراً من الدعاة والمصلحين ليعلمون هذه السنة العظيمة القدر ، لكن الواقع العملي يغفل في كثير من الأحيان عن هذه السنة ، والتي هي مفتاح النصر والتمكين وهي المدخل لتغيير واقعنا ، حيث قضى الله عز وجل أنه لا يغير أحوال قوم أو أمة حتى يبدأوا هم فيغيروا ما بأنفسهم ويصلحوا أحوالهم ، فيغير الله ما بهم ويأخذ بأيديهم ويعينهم .

وهذا يعني أنه متى تأخر نصر الله عز وجل مع الحاجة الماسة إليه فإن هناك أسباباً في تأخره ولا شك ، ومن أهم هذه الأسباب أن الذين يبحثون عن نصر الله تعالى لم يغيروا ما بأنفسهم بعد .

وحينئذ يجب أن تتوجه الجهود إلى العمل الجاد في التغيير الذي يبدأ من داخل النفس ومن داخل الصف المسلم حتى يغير الله عز وجل ما بنا وتتهياً الأسباب الجالبة لنصر الله تعالى .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قوله عز وجل :  
 ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾  
 [الأنفال: ٥٣] : يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير  
 نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه لقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ



مَا يَقَوْمُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴿١﴾ « (١) اهـ .

وهذه السنة الربانية ذات دلالتين في حالنا وواقعنا المعاصر :

**أولاهما :** أن التباين الشديد والهوة السحيقة بين الحياة الذليلة المهينة والضعف والانحسار وفقدان الثقة الذاتية مع تلقي المناهج والقيم والشرائع الغربية لتحقيق الذات واستمداد العزة ، وكذلك الهزيمة النفسية التي حلت في جذر قلب الأمة اليوم ، إن الفرق بين حياتنا هذه وبين الحياة العزيزة المهيمنة المستعلية القوية المتملكة لزام العالم أجمع ، تلك الحياة التي كانت تُتبع ولا تُتبع وتقود ولا تقاد كانت أبرز سمات عصر سلفنا الصالح ، إن كل هذا التباين الشديد بيننا وبين سلف الأمة خير شاهد ودليل على أننا غيرنا ما بأنفسنا فغير الله حالنا .

**ثانيهما :** أن حالنا اليوم لن يغيره الله حتى نغير ما بأنفسنا من كثرة البدع والشرك بشتى صوره - الجلية والخفية ، الظاهرة والباطنة - ، وكذلك التبعية الغربية النابعة من انحسار الإيمان وعدم الاستعلاء به في النفوس مع فقدان الثقة في نبع عزنا ، وأيضاً محو آثار المعاصي والفجور التي لبست ثوب المباح والتقدم والرقي ، وخلعت لباس التقوى والعزة والكرامة . . مع الفرار مما سبق كله إلى أفراد الله - جل ثناؤه - بالحب والخوف والإنابة والتلقي والتوجه مع تجريد الولاء لله ولدينه ولرسوله ﷺ وللمؤمنين ، والشعور باستعلاء الإيمان في النفوس والثقة بهيمنة كتابنا وحاكميته المطلقة لكافة شؤون الحياة وأنه نبع العز والتمكين ، وأن تكون تلك هي الولاية المعلنة

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، سورة الأنفال ٥٣ .

الخالصة من آية إضافة أو شائبة ، فعند هذا يُغير الله حالنا .

يقول صاحب الظلال ، رحمه الله تعالى :

« إن الله تبارك وتعالى يحرض المؤمنين على التجرد له والاتجاه إلى نصرته نهجه في الحياة ، ويعدهم على هذا النصر والتثبيت ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد : ٧ ، ٨] وكيف ينصر المؤمنون الله ؛ حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت ؟ إن الله في نفوسهم أن تتجرد له ، وألا تشرك به شيئاً ، شركاً ظاهراً أو خفياً ، وألا تستبقي فيها معه أحداً ولا شيئاً وأن يكون الله أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى ، وأن تُحكّمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها وسرها وعلانيتها ونشاطها كله وخلجاتها ، فهذا نصر الله في ذوات النفوس .

وإن لله شريعة ومنهاجاً للحياة تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة ، ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء فهذا نصر الله في واقع الحياة . .

وإنه متى استقرت حقيقة الإيمان في نفوس المؤمنين وتمثلت في واقع حياتهم منهجاً للحياة ونظاماً للحكم وتجرداً لله في كل خاطرة وحركة وعبادة لله في الصغيرة والكبيرة ، فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً . . وهذه حقيقة لا يحفظ التاريخ الإسلامي كله واقعة واحدة تخالفها . . ونحن نقرر في ثقة بوعده الله لا يخالجه شك أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين ، ولم تلحق بهم في تاريخهم كله ، إلا وهناك ثغرة في حقيقة

الإيمان - إما في الشعور وإما في العمل - ومن الإيمان أخذ العدة وإعداد القوة في كل حين بنية الجهاد في سبيل الله ، وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل إضافة ومن كل شائبة - ويقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية ثم يعود النصر للمؤمنين - حين يوجدون . .

ففي أحد مثلًا كانت الثغرة في ترك طاعة الرسول ﷺ وفي الطمع في الغنيمة ، وفي حنين كانت الثغرة في الاعتزاز بالكثرة والإعجاب بها ونسيان السند الأصيل ، ولو ذهبنا نتبع كل مرة تخلف فيها النصر عن المسلمين في تاريخهم لوجدنا شيئاً من هذا . . نعرفه أو لا نعرفه . . أما وعد الله فهو حق في كل حين . . نعم إن المحنة قد تكون للابتلاء . . ولكن الابتلاء إنما يجيء لحكمة هي استكمال حقيقة الإيمان ومقتضياته من الأعمال . فمتى اكتملت تلك الحقيقة بالابتلاء والنجاح فيه جاء النصر وتحقق وعد الله عن يقين . .

ويجب أن نفهم أن الهزيمة هي هزيمة الروح وكلال العزيمة . . فالهزيمة في معركة لا تكون هزيمة إلا إذا تركت آثارها في النفوس هموداً وكلالاً وقنوطاً ، فأما إذا بعثت الهمة وأذكت الشعلة وبصرت بالمزالق وكشفت عن طبيعة العقيدة وطبيعة المعركة وطبيعة الطريق . . فهي المقدمة الأكيدة للنصر الأكيد والله سبحانه يقول : ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ١٤١] وإنما يشير سبحانه إلى أن الروح المؤمنة هي التي تنتصر والفكرة المؤمنة هي التي تسود . وإنما يدعو سبحانه الجماعة المسلمة إلى استكمال حقيقة الإيمان في قلوبها تصوراً وشعوراً ، وفي حياتها واقعاً وعملاً . . وألا يكون اعتمادها كله على عنوانها . فالنصر ليس للعناوين وإنما

هو للحقيقة التي وراءها . . وليس بيننا وبين النصر في أي زمان وفي أي مكان إلا أن نستكمل حقيقة الإيمان ونستكمل مقتضيات هذه الحقيقة في حياتنا وواقعنا كذلك .

ومن حقيقة الإيمان أن نأخذ العدة ونستكمل القوة . ومن حقيقة الإيمان ألا نركن إلى الأعداء وألا نطلب العزة إلا من الله ، ووعد الله هذا الأكد يتفق تماماً مع حقيقة الإيمان وحقيقة الكفر في هذا الكون ، إن الإيمان صلة بالقوة الكبرى التي لا تضعف ولا تفتنى ، وإن الكفر انقطاع عن تلك القوة وانعزال عنها ، ولن تملك قوة محدودة مقطوعة منعزلة فانية أن تغلب قوة موصولة بمصدر القوة في هذا الكون ، غير أنه يجب أن نفرق دائماً بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان . .

إن حقيقة الإيمان قوة حقيقية ثابتة ثبوت النواميس الكونية ذات أثر في النفس وفيما يصدر عنها من الحركة والعمل . وهي حقيقة ضخمة هائلة كفيفة حين تواجه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة المحدودة أن تقهرها . ولكن حين يتحول الإيمان إلى مظهر فإن حقيقة الكفر تغلبه إذا هي صدقت مع طبيعتها وعملت في مجالها ؛ لأن حقيقة أي شيء أقوى من مظهر أي شيء ، ولو كانت هي حقيقة الكفر وكان هو مظهر الإيمان ، إن قاعدة المعركة لقهر الباطل هي إنشاء الحق وحين يوجد الحق بكل حقيقته وبكل قوته يتقرر مصير المعركة بينه وبين الباطل مهما يكن هذا الباطل من الضخامة الظاهرية الخادعة للعيون ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء : ١٨] .

والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول ، فما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير ، وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد

أن يستعلوا بالحق في الباطن . .

إن للحق والإيمان حقيقة متى تجسمت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلت ليراها الناس في صورتها الواقعية ، فإذا ظل الإيمان : مظهراً لم يتجسم في القلب ، والحق : شعاراً لا ينبع من الضمير ، فإن الطغيان والباطل قد يغلبان ؛ لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والإيمان ، يجب أن تتحقق حقيقة الإيمان في النفس وحقيقة الحق في القلب ، فتصبحان أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلي بها الباطل ، ويصول بها الطغيان «<sup>(١)</sup> اهـ .

ونختم الحديث حول هذه السنة بكلام بديع لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى ، نقله بطوله لعظيم فائدته - حيث يقول رحمه الله تعالى :

«ولكن تُذكر هنا نكتة نافعة ، وهو أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيراً من أهل الإيمان والإسلام في الدنيا من مصائب ، وما يصيب كثيراً من الكفار والفجار في الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك ، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور ، وأن المؤمنين ليس لهم في الدنيا ما يتنعمون به إلا قليلاً ، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة قد تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين ، وإذا سمع ما جاء في القرآن من أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأن العاقبة للمتقوى ، وقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصفات : ١٧٣] - وهو ممن يصدّق بالقرآن - حمل هذه الآيات على الدار الآخرة فقط ، وقال : أما في الدنيا فما نرى بأعيننا إلا أن الكفار

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن ، ص ٢٤٨ .

والمنافيين فيها يظهرن ويغلبون المؤمنين ، ولهم العزة والنصرة ، والقرآن لا يرد بخلاف المحسوس ، ويعتمد على هذا فيما إذا أدبل عليه عدو من جنس الكفار والمنافيين أو الظالمين ، وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى ، فيرى أن صاحب الباطل قد علا على صاحب الحق ، فيقول : أنا على الحق وأنا مغلوب ، وإذا ذكره إنسان بما وعده الله من حسن العاقبة للمتقين ، قال : هذا في الآخرة فقط .

وإذا قيل له : كيف يفعل الله بأوليائه مثل هذه الأمور ؟ قال : يفعل ما يشاء ، وربما قال بقلبه أو لسانه ، أو كان حاله يقتضي أن هذا من نوع الظلم ، وربما ذكر قول بعضهم : ما على الخلق أضر من الخالق ، لكن يقول : يفعل الله ما يشاء . وإذا دُكر برحمة الله وحكمته لم يقل إلا أنه يفعل ما يشاء ، فلا يعتقدون أن صاحب الحق والتقوى منصور ومؤيد ، بل يعتقدون أن الله يفعل ما يشاء .

وهذه الأقوال مبنية على مقدمتين :

إحداهما : حسن ظنه بدين نفسه نوعاً أو شخصاً ، واعتقاد أنه قائم بما يجب عليه ، وتارك ما نُهي عنه في الدين الحق ، واعتقاده في خصمه ونظيره خلاف ذلك : أن دينه باطل نوعاً أو شخصاً ، لأنه ترك المأمور وفعل المحظور .

والمقدمة الثانية : أن الله قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره . وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا ، فلا ينبغي الاغترار بهذا .

والمقدمتان اللتان بنيت عليهما هذه البلية مبناهما على الجهل بأمر الله

ونهيهِ، وبوعده ووعيده . فإن صاحبهما إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق ، فقد اعتقد أنه فاعل للمأمور ، وتارك للمحذور ، وهو على عكس ذلك ، وهذا يكون من جهله بالدين الحق .

وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله في الدنيا ، بل قد تكون العاقبة في الدنيا للكفار على المؤمنين ، ولأهل الفجور على أهل البر ، فهذا من جهله بوعده الله تعالى .

أما الأول : فما أكثر من يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجوبها ، وما أكثر من يفعل محرمات لا يعلم بتحريمها ، بل ما أكثر من يعبد الله بما حرم ويترك ما أوجب ، وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه ، وأن خصمه هو الظالم المبطل من كل وجه ، ولا يكون الأمر كذلك ، بل يكون معه نوع من الباطل والظلم ، ومع خصمه نوع من الحق والعدل .

وحبك الشيء يعمي ويصم ، والإنسان مجبول على محبة نفسه ، فهو لا يرى إلا محاسنها ، ومبغض لخصمه ، فلا يرى إلا مساوئه ، وهذا الجهل غالبه مقرون بالهوى والظلم ، فإن الإنسان ظلوم جهول .

وأكثر ديانات الخلق إنما هي عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم ، وتقليدهم في التصديق والتكذيب ، والحب والبغض ، والموالاتة والمعاداتة .

كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [لقمان : ٢١] . وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ [٦٦] وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٦٦ ، ٦٧] .

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤].

وأما الثاني: فما أكثر من يظن أن أهل الدين الحق في الدنيا يكونون أذلاء معذبين بما فيه، بخلاف من فارقههم إلى طاعة أخرى أو سبيل آخر، ويكذب بوعد الله بنصرهم.

والله سبحانه قد بين بكتابه كلا المقدمتين فقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

وقال تعالى في كتابه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصفات: ١٧١ - ١٧٣].

وقال تعالى في كتابه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كَبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذِينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢٠، ٢١].

وقال تعالى في كتابه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

وقال تعالى في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ .



وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقد روي عن أبي ذر، عن النبي ﷺ أنه قال: «لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لوسعتهم» رواه ابن ماجه وغيره<sup>(١)</sup>.

وأخبر أن ما يحصل لهم من مصيبة انتصار العدو وغيرها ، إنما هو بذنوبهم ، فقال تعالى في يوم أحد : ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وقال تعالى : ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال تعالى : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

وقال تعالى : ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الروم: ٣٦].

وقال تعالى : ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ [الشورى: ٣٤].

وذم في كتابه من لا يثق بوعدده لعباده المؤمنين ، وذكر ما يصيب الرسل والمؤمنين ، فقال تعالى : ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ

(١) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٢٠)، ورواه أيضاً الإمام أحمد (١٧٨/٥) بلفظ : « لو أن الناس كلهم أخذوا بهذه الآية لكفتهم » ، وقال الألباني في مشكاة المصابيح : إنه ضعيف .

الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَاهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿الأحزاب: ١٠ - ١٤﴾.

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَاءٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩ - ١١١].

ولهذا أمر الله رسوله والمؤمنين باتباع ما أنزل إليهم، وهو طاعته، وهو المقدمة الأولى. وأمرهم بانتظار وعده، وهي المقدمة الثانية. وأمرهم بالاستغفار والصبر، لأنهم لا بد أن يحصل لهم تقصير وذنوب فيزيله الاستغفار، ولا بد مع انتظار الوعد من الصبر، فبالاستغفار تتم الطاعة، وبالصبر يتم اليقين بالوعد، وإن كان هذا كله يدخل في مسمى الطاعة والإيمان.

قال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَيَّ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَاهُم نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَأِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

[الأنعام: ٣٤]

وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩] .

وأمرهم أيضاً بالصبر إذا أصابتهم مصيبة بذنوبهم ، مثل ظهور العدو ، وكما قال تعالى في قصة أحد : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَادَاوَلَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩ - ١٤١] .

وأيضاً فقد قص سبحانه في كتابه نصره لرسله ولعباده المؤمنين على الكفار في قصة نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وفرعون وغير ذلك .  
وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١] ،  
وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [النور: ٣٤] .

وهذا يتبين بأصلين :

أحدهما : أن حصول النصر وغيره من أنواع النعيم لطائفة أو شخص لا ينافي ما يقع في خلال ذلك من قتل بعضهم وجرحه ومن أنواع الأذى ، وذلك أن الخلق كلهم يموتون ، فليس في قتل الشهداء مصيبة زائدة على ما

هو معتاد لبني آدم ، فمن عد القتل في سبيل الله مصيبة مختصة بالجهاد كان من أجهل الناس ، بل إن الفتن التي تكون بين الكفار وتكون بين المختلفين من أهل القبلة ليس مما يختص بالقتال ، فإن الموت يعرض لبني آدم بأسباب عامة ، وهي المصائب التي تعرض لبني آدم من مرض بطاعون وغيره ، ومن جوع وغيره . وبأسباب خاصة ، فالذين يعتادون القتال لا يصيبهم أكثر مما يصيب من لا يقاتل ، بل الأمر بالعكس ، قد جرَّبه الناس .

ثم موت الشهيد من أسير الميئات، ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿ [الأحزاب: ١٦، ١٧].

فأخبر سبحانه أن الفرار من القتل أو الموت لا ينفع ، فلا فائدة فيه ، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلاً ، إذ لا بد من الموت .

وأخبر أن العبد لا يعصمه من الله أحد إن أراد به سوءاً أو أراد به رحمة وليس من دون الله ولي ولا نصير ، فأين نفرُّ من أمره وحكمه ؟ ولا ملجأ منه إلا إليه ، قال تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [الذاريات: ٥٠] وهذا أمر يعرفه الناس من أهل طاعة الله وأهل معصيته ، كما قال أبو حازم الحكيم : «لما يلقى الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقاه الذي يتقي الله من معالجة التقوى» .

والله تعالى قد جعل أكمل المؤمنين إيماناً أعظمهم بلاءً ، كما قيل للنبي ﷺ : أي الناس أشد بلاءً ؟ قال : «الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يُتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة خُفف عنه ، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي

على الأرض وليس معه خطيئة»<sup>(١)</sup> .

فالجهاد للكفار أصلح من هلاكهم بعذاب سماء من وجوه:

أحدها : أن ذلك أعظم في ثواب المؤمنين وأجرهم وعلو درجاتهم ، لما يفعلونه من الجهاد في سبيل الله ، لأن تكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله .

الثاني : أن ذلك أنفع للكفار أيضاً ، فإنهم يؤمنون من الخوف ، ومن أسر منهم وسيم من الصغار يسلم أيضاً ، وهذا من معنى قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

قال أبو هريرة : «وكنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة» ، فصارت الأمة بذلك خير أمة أخرجت للناس ، وأفلح بذلك المقاتلون ، وهذا هو مقصود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا من معنى كون محمد ﷺ ما أرسل إلا رحمة للعالمين ، فهو رحمة في حق كل أحد بحسبه حتى المكذبين له ، هو في حقهم رحمة أعظم مما كان غيره .

ولهذا لما أرسل الله إليه ملك الجبال وعرض عليه أن يقلب عليهم الأخشبين قال : « لا ، استأن لهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له » .

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٤٠٠) ، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٣) وهو في السلسلة الصحيحة (١٤٣) .

(٢) رواه البخاري بنحوه في بدء الخلق (٣٢٣١) ، ومسلم في الجهاد (١٧٩٥) .

الوجه الثالث : أن ذلك أعظم عزة للإيمان وأهله ، وأكثر لهم ، فهو يوجب من علو الإيمان وكثرة أهله ما لا يحصل بدون ذلك ، وأمر المنافقين الفجار بالمعروف ونهيهم عن المنكر هو من تمام الجهاد وكذلك إقامة الحدود .

ومعلوم أن في الجهاد وإقامة الحدود من إتلاف النفوس والأطراف والأموال ما فيه ، فلو بلغت هذه النفوس النصر بالدعاء ونحوه من غير جهاد ، لكان ذلك من جنس نصر الله للأنبياء المتقدمين من أمهم لما أهلك نفوسهم وأموالهم .

وأما النصر بالجهاد وإقامة الحدود فذلك من جنس نصر الله لما يختص به رسوله ، وإن كان محمد ﷺ وأمه منصورين بالنوعين جميعاً ، لكن يشرع في الجهاد باليد ما لا يشرع في الدعاء»<sup>(١)</sup> اهـ .

\* \* \*

(١) جامع الرسائل ، ج٢ الرسالة الثالثة (قاعدة في المحبة) ، ص ٣٢٤-٣٣٩ .

## ● السنة الثالثة ●

بالجمع بين السنة الأولى والثانية تظهر معالم هذه السنة، وذلك لو أن الناس لم يغيروا ما بأنفسهم، فهل معنى هذا أن نصر الله عز وجل لن يأتي؟

والجواب: كلا، فلا بد من أن يأتي نصر الله عز وجل، كما تقرر ذلك في السنة الأولى ولكن يقف في سبيل ذلك عدم الأخذ بالسنة الثانية في التغيير. وفي هذه الحالة تأتي سنة الله عز وجل الثالثة والمتضمنة تبديل من رفضوا تغيير ما بأنفسهم وواقعهم بجيل يحبهم الله عز وجل ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله لا يخافون في الله لومة لائم. فيحققون بذلك أسباب النصر، فينزل الله عز وجل عليهم نصره ويشرفهم به.

وهذا كثير في كتاب الله عز وجل حيث يقول سبحانه: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، ويقول تعالى: ﴿إِلَّا تَتَفَرُّوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ... الآية﴾ [التوبة: ٣٩]، ويقول جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية : «يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصره دينه وإقامة شريعته ، فإن الله يستبدل من هو خير لها منه وأشد منعة وأقوم سبيلاً»<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

#### محصلة السنن الثلاث :

إن نصر الله عز وجل آت لا محالة ، ولكن له أسباب وسنن ، وهو يبدأ من تغيير الناس ما بأنفسهم أولاً حتى يغير الله عز وجل ما بأرضهم ويمكن لهم دينهم ، وإنهم إن لم يغيروا ما بأنفسهم فإن هذا لا يعني عدم مجيء نصر الله عز وجل ، وإنما يستبدل الله عز وجل قوماً آخرين يحققون أسباب النصر والتغيير ويشرفهم سبحانه بأن ينزل عليهم نصره المبين ، ويدفع بهم الفساد ، ويعذب الكافرين بأيديهم .

وبعد إيضاح هذه السنن وعلاقة بعضها ببعض يحسن بنا أن نذكر جملة من العوائق في طريق النصر حتى يتوقاها المسلمون ويكونوا منها على بينة وبصيرة .

\* \* \*

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، سورة المائدة ، الآية : ٥٤ .



## عوائق في طريق النصر

إن العوائق والتحديات التي تعترض سبيل الدعوة اليوم كثيرة جداً بعضها أخطر من بعض ، وقد أدت هذه العوائق ببعض النفوس إلى داء خطير إذا حل في النفوس حطمها وأذلها ، ألا وهو اليأس أو الهزيمة النفسية من الداخل ، وهذا الداء هو في حد ذاته من أكبر العوائق .

وقد حذر الله عز وجل من هذا الداء أن يتسرب إلى نفوس المؤمنين به سبحانه ؛ لأن بمجرد دخول الإيمان إلى القلوب فإنه ينفي الهوان والذلة والضعف عنها، ويورثها القوة والعزة والكرامة مهما كانت الظروف التي تعيشها هذه القلوب المؤمنة من تشريد أو سجن أو تعذيب . فغاية ما يملكه المتسلطون هو الجسد فقط ، أما القلب المعمور بالإيمان ففيه قوة الإيمان التي تستعلي على كل ابتلاء وهزيمة واستضعاف .

والله سبحانه يقول للمؤمنين وقد أصابهم القرع في أحد : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩] ، فلا يجتمع الوهن والاستكانة مع الإيمان الحقيقي أبداً .

وقال أيضاً في هذا المقام : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا

وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ [آل عمران: ١٤٦، ١٤٧].

فتأمل وصفه تعالى للربيين عند حلول المصيبة بأنهم ما ضعفوا . . وما استكانوا . . وما وهنوا . . فكيف بعد هذا للهوان أو اليأس أن يتطرق إلى قلوب المؤمنين في أي ظرف من الظروف وهم يملكون الإيمان الذي يرفعهم على كل هزيمة وكيد ومكر؟

وبعد هذه التوطئة التي لا بد منها نعود إلى ذكر أهم هذه العوائق التي تقف في طريق النصر والتي يمكن إجمالها في :

١- العوائق الخارجية .

٢- العوائق الداخلية .

أولاً- العوائق الخارجية :

ويقصد بها تلك العوائق والتحديات الواردة من خارج الصف الإسلامي وذلك من أعداء هذا الدين والمتمثلين فيما يلي :

(١) إن هذه الآية ترسم الموقف الشرعي حال الاستضعاف والهزيمة حيث يتمثل في أربعة معالم أساسية :

أ- الحذر من الهوان والذلة والاستكانة عند الهزيمة ؛ لأن المؤمن يركن إلى من بيده ملكوت كل شيء .

ب- مراجعة النفس لأنها في الغالب منها المصائب والهزائم وذلك من ذنوبها وإسرافها في أمرها ، وهذا هو الذي فعله الربيون عندما أصابهم القرع ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ... ﴾ الآية .

ج- الصبر الجميل في مثل هذه الظروف ، ودعاء الله عز وجل ، وهذا ما مدحهم الله عز وجل به حيث قال في آخر الآية : ﴿ وَاللَّهُ يَحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ .

د- دعاء الله عز وجل بالثبات على الدين والانتصار على الكافرين .

- ١- الكفار الصرحاء الذين أسفروا عن عدائهم وحقدهم على الإسلام وأهله كاليهود والنصارى والوثنيين وغيرهم .
- ٢- المنافقون المظهرون للإسلام والمبطنون للكفر والزندقة ، وهؤلاء من بني جلدتنا ويتكلمون بألستنا كما هو الحال من العلمانيين والباطنيين الذين يكيّدون لهذا الدين ويوالون أعداءه من اليهود والنصارى .
- ٣- الأنظمة الحاكمة في أكثر بلدان المسلمين التي وجهت عداءها وكيدها على شعوبها المسلمة باسم مكافحة التطرف والإرهاب فأكثروا في الأرض الفساد ووقفوا في وجه كل حركة إصلاحية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

### ثانياً- العوائق الداخلية :

- ويقصد بها العوائق التي توجد داخل الصف المسلم من الانحراف الموجود في الفهم أو القصد ، وهذه العوائق تتمثل فيما يلي :
- ١- عوائق داخل الصف الإسلامي للدعاة تتمثل في الفرقة المشينة والاختلاف والشحناء والبغضاء .
  - ٢- عوائق داخل نفوس أفراد الدعوة من أمراض وأدران وركون إلى الدنيا وتحاسد ورياء وكبر . . إلخ .
- وبمقارنة العوائق الواردة من الخارج بالعوائق الواردة من داخل الصف الإسلامي يظهر لنا خطورة العوائق الداخلية وأثرها في تأخر نصر الله عز وجل ، ولولم توجد العوائق الداخلية لما كان للعوائق الواردة من الخارج أن تؤثر بكيدها ومكرها في الصف الإسلامي والمجتمع المسلم .

قال تعالى: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ .

[آل عمران: ١٢٠]

ففي هذه الآية الكريمة يعلمنا الله عز وجل أن كيد العدو الخارجي لا يضر المؤمنين شيئاً إذا اتصفوا بالصبر والتقوى ؛ لأن الله عز وجل محيط بعمل الكفار وتخطيطهم ، وهم في قبضته والعكس بالعكس ؛ فمتى ظهر كيد الكفار في الصف المسلم فإن هذا دليل على ضعف الصبر والتقوى ، ويؤكد هذا المعنى أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] .

مما سبق يتبين لنا خطورة العوائق الداخلية وأن التغيير المنشود في الأرض يبدأ من التغيير في النفس وتفقدتها سواء في سلامة الفهم والمعتقد أو في سلامة المقصد والنوايا ، وأن أي خلل في الفهم والقصد يظهر أثره في تسلط الأعداء وتأخر نصر الله عز وجل .

إنه بدلاً من أن نسقط أسباب ضعفنا ومهانتنا على عدونا الخارجي ؛ يجب علينا أن نرجع إلى أنفسنا ونتوجه إلى إصلاحها وإصلاح ذات بيننا حتى نكون أهلاً لنصر الله عز وجل وحتى يغير الله ما بنا .

إن إصلاح النفوس وإقامة حكم الله فيها عقيدة وعبادة وسلوكاً هو الطريق إلى إقامة حكم الله في الأرض . . وإلا فما قيمة المطالبة بإقامة حكم الله في الأرض واستعجال نصر الله تعالى ، ولما تستقم النفوس على منهج الله تعالى وتنقده؟! !

وما أحسن مقولة من قال : «أقيموا دولة الإسلام في نفوسكم تقم على أرضكم» .

إن المسلم العارف لسنن الله عز وجل في التغيير ليتألم من حالنا وواقعنا وما حل بيننا من فرقة وشحناء وأهواء ، ويتساءل بمرارة كيف يأتي نصر الله عز وجل في هذه الظروف والله عز وجل يقول : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] ؛ هذا على مستوى الدعاة والجماعات !!؟

أما إذا جئنا إلى نفوس الدعاة كأفراد فإن المراقب لواقعنا وأخلاقنا واهتماماتنا لا ينقضي عجبه وهو يرى ذلك التناقض بين ما يدعو إليه الداعية وبين سلوكياته وأخلاقه ، وبالتالي يتكرر نفس السؤال المطروح آنفاً ، كيف ينزل نصر الله عز وجل على أناس هذه أخلاقهم وتلك تضحياتهم وهذه مقاصدهم !!؟

يقول الدكتور محمد أمين المصري - رحمه الله تعالى - حول هذا الموضوع :

« إن الأعداء في الخارج يرقبون حركات المسلمين ويتربصون بهم الدوائر ويكيدون لهم كيداً ، ويمكرون بهم مكر الليل والنهار ، ومرجع هذا الصراع إلى عصور مترامية تمتد إلى الحين الذي دكت فيه عروش القياصرة والأكاسرة وامتد حكم الإسلام إلى أطراف العالم ؛ فهناك الحركة الصليبية ، وهناك الصهيونية والاستعمار الغربي والشرقي ، وهؤلاء جميعاً يختلفون فيما بينهم ولكنهم يصطلحون على حرب المسلمين ، ويجمعون أمرهم كيلا تقوم للمسلمين قائمة ولا تجتمع لهم كلمة . ويعتبر هذا الجانب خارجياً ، وهو -

وإن بلغ ذروة الكيد - ليس أكبر الجانين أهمية بل هو - كما سنرى - نتيجة تابعة للعامل الثاني الذي هو الجانب الداخلي وهو المجتمع الذي يعيش فيه المسلمون ، وهنا نجد عقبات في الأفراد أنفسهم وفي تنشئتهم وتربيتهم .

وليس من شك في أن أكبر الأخطار التي تواجه المسلمين اليوم كامنة في النقص في تربية أفراد المسلمين أنفسهم ، والضعف الذي أصيب به شبابهم .

وأكبر المصائب أن يصاب الفرد بنفسه ؛ ذلك لأن معالجة أي خطر ممكنة ميسرة حينما تكون تربية الأفراد تربية قوية تستطيع أن تجابه المصاعب وتصد للحوادث .

ومن عادة الضعيف أن يلقي بأسباب ضعفه على عوامل خارجية يدعي أنه لا يملك التصرف فيها ليسوغ لنفسه ما هو فيه ، ولقد اعتدنا أن نفعل ذلك وأن نلقي تبعات ما نحن فيه من ضعف وتقصير على الاستعمار أولاً ، وعلى الماضي ثانياً ، وعلى مجتمعنا ثالثاً ، ولا يخطر ببال أحدنا أن يجعل نفسه مركز الاتهام بينما يجعل القرآن العامل الأساسي فيما يصيب الإنسان من مصيبة هو نفسه ، قال تعالى : ﴿ أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّنِي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

[آل عمران : ١٦٥]

يبين الله تعالى بشأن بني النضير حين غلبهم المسلمون أنهم أتوا من حيث لم يحتسبوا وكان ذلك من قبل أنفسهم . قال تعالى : ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا

أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿ [الحشر: ٢] .

لم يؤت هؤلاء من نقص في ذخيرتهم أو عددهم أو حصونهم ، ولكنهم أتوا من قبل أنفسهم ، أيضاً قال رسول الله ﷺ : «ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت»<sup>(١)</sup> .

الحديث الكريم يخبر عن سنة عميقة من سنن الاجتماع تبين ما تنتهي إليه الجماعة حين تفسد فطرتها وتملأ الدنيا قلوب أفرادها ، ولقد كشف هذه الحقيقة الباحثون المحدثون لدراسة الجماعات وعوامل انحطاطها . قال أحد هؤلاء : إن الأسباب الحقيقية لكل انحطاط داخلية لا خارجية . وليس علينا أن نلوم العواصف حين تحطم شجرة نخرة في أصولها ، إنما اللوم على الشجرة النخرة نفسها .

والقرآن الكريم يهدي إلى هذه السنة ويبين للناس بأن ما يقع على الأمم من ظلم واضطهاد مرجعه إلى الناس أنفسهم وما كسبت أيديهم ، ولذا نجد التعبير بظلم النفس يتكرر في مواطن كثيرة في القرآن الكريم يقول تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : ١١٨] .

والأمة التي تصاب بأبنائها هي التي تتعرض للمصائب والنكبات وتصبح عرضة لغزو العدو .

فهي إذن عوامل ثلاثة تعمل معاً : عدو خارجي متربص ، ومجتمع ، وأفراد . والمكانة التي تشغلها الأمة من محصلة هذه العوامل الثلاثة ، فقد

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم (٤٢٩٧) . وهو في صحيح سنن أبي داود (٣٦١٠) .

تكون بسبب ضعفها الداخلي مغزوة من الخارج ، وقد تكون بسبب قوتها الداخلية وتماسك مجتمعها غازية في الخارج .

وليست الحياة إلا صراعاً تقاوم فيه الصعوبات التي تتحدى الفرد والجماعة ثم تكون الغلبة والانتصار أو الاستسلام والهزيمة ؛ تلك سنة الله منذ بدء الخليقة<sup>(١)</sup> اهـ .

\* \* \*

(١) من كتاب المسئولية-الدكتور / محمد أمين المصري ، ص ١٣ .



## العالم الرئيسية لمنهج التغيير الصحيح

إن عدم الانتباه لسنن الله عز وجل السابق ذكرها في التغيير مع العوائق الشديدة التي تواجه الدعوة إلى الله عز وجل في طريقهم قد يؤدي ذلك كله ببعض الطيبين - وقد أدى - إلى اليأس والإحباط حتى ألقى بيديه ينتظر خارقة أو مهدياً<sup>(١)</sup> ينصر الله به دينه، كما أدى ذلك ببعض الآخر إلى أن يظن أن الحل يكمن في التنازل للأعداء والرضا بالحللول الوسط؛ فدخل في تحالفات أو مجالس وبرلمانات ليحقق بذلك بعض المكاسب للدعوة أو يدفع بعض

(١) المهدي حقيقة ثابتة نؤمن بها حيث ورد ذكره في أحاديث كثيرة أوصلها بعض العلماء إلى حد التواتر، ولكن المؤمن بوعد الله عز وجل يوقن بانتصار هذا الدين ولا يربطه بخروج المهدي، وإنما يربطه بأسبابه الشرعية. صحيح أن الانتصار النهائي الشامل لن يكون - والله أعلم - إلا بعد خروجه، لكن المهدي حينها لن يخرج على الدنيا وحده، وإنما لا بد وأن فئة من المؤمنين قد تهيأت لمخرجه وأعدت نفسها بكل ما تعني كلمة الإعداد من معنى. أما الذين أهملوا أنفسهم وركنوا لدنياهم ولم يعدوا أنفسهم للجهاد في سبيل الله عز وجل سواء مع المهدي أو مع أي مصلح آخر فسوف يكونون أبعد الناس عن اتباعه ولو ظهرت على يديه الخوارق المعجزات. إن الخوارق والمعجزات لم تنفع بني إسرائيل عندما طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكاً يقاثلون معه، مع أن الله عز وجل قد أيدته بمعجزة التابوت الذي فيه سكينه من ربههم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، ومع ذلك فقد نكل أكثرهم، ولما عرضهم على النهر شربوا منه إلا قليلاً منهم، والقليل منهم لما برزوا لجالوت وجنوده: ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، فالعبرة إذن ليست بخروج المهدي وظهور الخوارق وأن الناس سيتبعونه إذا رأوا ذلك منه... كلالن يشبت ويواصل السير إلا من وفقه الله عز وجل وكان له حظ من التربية على الإيمان والصبر واليقين.

المفاسد عنها .

وفي المقابل نشأ فريق آخر يرى المواجهة واستعجال النصر ولكن قبل أوانه . كل ذلك - والله أعلم - نشأ من الضغوط الشديدة من العوائق الخارجية والداخلية وإغفال سنن الله عز وجل في التغيير .

وإن الحل لواقعنا المرير هو المنهج الصحيح في التغيير والذي يكمن في منهج الرسول ﷺ وبالذات في بدء الدعوة واستضعافها . وباستقراء معالم هذا المنهج الكريم يتبين أن أهمها ما يلي :

١- الانطلاق في الدعوة إلى الله عز وجل من أصلين عظيمين أمر الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ أن ينطلق بهما، وهذان الأصلان مذكوران في سورة مكية حيث يقول الله عز وجل : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

فقد حددت هذه الآية الكريمة صفات الدعوة الصالحة المقبولة عند الله عز وجل وأنها هي التي تركز على هذين الأصلين العظيمين وهما :

**الأصل الأول** : ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ : والمراد من ذلك الدعوة إلى التوحيد بادئ ذي بدء<sup>(١)</sup> والموالاتة والمعاداة على أساسه ، والإخلاص والصدق في

(١) أورد الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى هذه الآية في كتاب التوحيد باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله ليدل على أهمية التوحيد وأنه أول ما يدعى الناس إليه ، كما أنه استدلل بهذه الآية أيضاً على وجوب التجرد لله سبحانه وتعالى في الدعوة إليه ، وأن تكون الدعوة خالصة له وحده ، فذكر رحمه الله تعالى في مسائل الباب حول هذه الآية قوله : التنبيه على الإخلاص ؛ لأن كثيراً من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه .

الدعوة، وأن المراد منها وجه الله عز وجل، وإخلاص العبادة له وتوحيده، وأنه لا يدعو إلى شيء إلا إلى الله عز وجل؛ لا إلى شخص، أو حزب، أو راية أو أي غرض من أغراض الدنيا، والمراد من هذا الأصل سلامة القصد.

**الأصل الثاني:** ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾: أي أن تكون الدعوة على بصيرة وعلم ودليل واتباع للرسول ﷺ، والمراد من هذا الأصل سلامة الفهم.

فإذا انطلقت الدعوة إلى الله عز وجل من قصد سليم وفهم سديد فهذه هي الدعوة الموقفة الموافقة لمنهج النبي ﷺ.

إذن فعلينا معاشر الدعاة إلى الله عز وجل أن نعيد النظر في مقاصدنا وفهومنا، إذ إن نصر الله عز وجل لا ينزل إلا على قوم قد صحت مقاصدهم فأخلصوا لله دعوتهم وعبوديتهم، وصحت فهمهم بالسير على ما كان عليه الرسول ﷺ وصحبه الكرام عقيدة وعبادة وسلوكاً، أما إذا تأخر نصر الله تعالى فهذا دليل على خلل في القصد أو خلل في الفهم وعندئذ يجب تلافي هذا الخلل والانسجام مع سنن الله عز وجل في التغيير ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

٢- إيمان بالله عز وجل وبوعده الذي لا يتخلف وأن نصره تعالى لعباده المؤمنين آت لا محالة، وأن نوقن بذلك كما نرى الشمس في رابعة النهار. وهذا ما كان يربي النبي ﷺ عليه أصحابه وهم في حالة استضعاف وإيذاء، ومن ذلك قوله ﷺ لخباب بن الأرت عندما جاءه يشكو إليه أذى المشركين ويطلب نصر الله تعالى: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه.

والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون»<sup>(١)</sup> .

٣- السعي إلى توحيد صفوف أهل السنة ورأب الصدع وتأليف القلوب وتحقيق معنى قوله ﷺ : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كممثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحسنى والسهر»<sup>(٢)</sup> .

وكذلك قوله ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً - وشبك بين أصابعه»<sup>(٣)</sup> ، فهل هذه المعاني العظيمة متحققة الآن بين الدعاة المؤمنين أم أن الحاصل هو الفرقة والاختلاف !؟

إن الله عز وجل قد حذرنا من التنازع والتفرق وأخبرنا أن الفشل والهزيمة وتغلب الأعداء ثمرة حتمية للتنازع ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] ، فكيف نرجو نصراً ونحن بهذه الحالة !؟

إن الواجب على كل مؤمن صادق مخلص أن يسعى جاهداً للوحدة والاتلاف ويكره وينبذ الفرقة والاختلاف ، وإن لم يستطع جمع الكلمة فلا أقل من أن يكف شره ولا يفرق ، فمن استطاع أن يجمع فليفعل ، ومن لم يستطع فلا يفرق ، فهذا منه خير .

كما يجب على الدعاة المخلصين المتبعين للسنة أن يتعاونوا بينهم وأن

(١) صحيح البخاري - كتاب الإكراه (٦٩٤٣) .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

يتركوا التلاوم والنقد فيما يسعه الاختلاف، وأن يقدر كل منهم الآخر ويذكر له خيره وجهده، وأن يكمل بعضهم بعضاً، لا أن يضاد بعضهم بعضاً ويُسِفُّه بعضهم البعض الآخر، ويحتقر جهده، ويسيء الظن به، فهذا كله من الشيطان الذي لا يفتأ يسعى للتحرिश والتفريق بين المؤمنين .

٤- التربية الجادة للنفوس وإحياء السلوك الإسلامي وأخلاق السلف الفاضلة والقضاء على الرواسب والأخلاق الرديئة. وهذا يحتاج إلى صبر طويل وجهد كبير .

٥- التركيز على الجانب العبادي وتكثيفه كما كان الرسول ﷺ يربي عليه أصحابه في مكة من صلاة الليل والذكر وغيره، والتربية على الزهد في الدنيا وإنشاء هم الآخرة وانتظار موعود الله عز وجل فيها .

٦- توطين النفوس على الصبر على البلاء، والنفس الطويل وعدم العجلة في ذلك حتى يتم صقلها وتمحيصها، وأن تربي على أن يكون الانطلاق من الشريعة وقواعدها لا من ردود الفعل والعواطف الملتهبة، وهذا يحتاج إلى تربية طويلة وصبر جميل ودعوة هادئة مستمرة يتم فيها إبلاغ الناس بدين الله عز وجل ويتميز فيها الخبيث من الطيب كما هو الحال في العهد المكي الذي ظهرت فيه هذه المعاني بوضوح وجلاء؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة .

٧- توسيع نطاق الدعوة إلى الله عز وجل والبلاغ العام لكافة الطبقات وإقامة الحجة وتعرية الباطل باللسان والبيان .

٨- إعداد النفوس للجهاد في سبيل الله عز وجل والذي هو ذروة سنام

هذا الدين وهو ثمرة الفهم الصحيح والقصد الصحيح والصبر الطويل في التربية عليهما .

فلا بد من الاستعداد والإعداد له ، فنحن نوقن تمام اليقين أنه لا يرفع عن المسلمين ما هم فيه من ذلة ومهانة إلا أن تحيا معاني الجهاد في نفوسهم ، قال ﷺ : «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد في سبيل الله ، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم»<sup>(١)</sup> .

فحياة المسلمين وعزهم وشرفهم في الجهاد في سبيل الله عز وجل ، فوق ذلك فإنه واجب شرعي لتبليغ دين الله عز وجل والقضاء على الفساد في الأرض وتعبيد الناس لربهم سبحانه ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

وقد قال الرسول ﷺ : «من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق»<sup>(٢)</sup> .

(١) رواه أبو داود ، في البيوع والإجازات (٣٤٦٢) ، وقال محقق «جامع الأصول» : هو صحيح .

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمامة (١٩١٠) .

إن المتأمل في أحوالنا اليوم وطريقة تفكيرنا ومعيشتنا وتعاملاتنا ليرى عدم المصادقية الكافية عندنا في إعداد النفس للجهاد وتحديثها بالغزو على جميع المستويات إلا من رحم الله تعالى ، فمجرد نظرة سريعة إلى اهتماماتنا ، وما يشغل قلوبنا نرى أنها ليست اهتمامات مجاهدين . وكذلك أسلوب معيشتنا وما يشتمل عليه من الترف والترهل وحب الدعة والراحة والركون إلى الدنيا وكرهية الموت ، كل هذا لا يتفق مع حقيقة تحديث النفس بالغزو وإعدادها للجهاد .

إن « تحديث النفس بالغزو » الذي ينجي من شعب النفاق لا يكفي له أن يحدث الإنسان نفسه أنه سيغزو ويجاهد ويكتفي بهذا الحديث النفسي وهو متكئ على أريكته مشحون قلبه بدنياه ، كلا ليس هذا هو الحديث المنجي . إنما تحديث النفس بالغزو يعني أموراً عملية لا بد من العزيمة عليها من الآن أهمها ما يلي :

١- الإعداد العلمي والفقہ في الدين والبصيرة فيه حتى تكون دعوة الفرد ويكون جهاده على بصيرة وروية ووضوح راية ، ويفقه لماذا يجاهد؟ وكيف يجاهد؟ ومن يجاهد؟ وعلى أي عقيدة يجاهد؟ كل هذا لا يتأتى إلا بالعلم والفقہ في دين الله عز وجل .

٢- الإعداد التربوي والسلوكي ابتداء من تقوية الصلة بالله عز وجل ، وإخلاص النية له ، والتقرب له بالطاعات ، والزهد في الدنيا والتخفف منها ، والرغبة فيما عند الله عز وجل من الجنة والرضا ، والتخلق بأخلاق الإسلام ، وهذا كله يحتاج إلى جهد كبير وترويض شديد وصبر طويل .

٣- التعبئة النفسية وبت روح الجهاد ، وانتشال النفس مما هي فيه من

كسل ودعة واستخذاء، والارتفاع بها من الهزيمة النفسية إلى الاعتزاز بهذا الدين، والثقة بنصر الله عز وجل واليقين التام بأهمية الجهاد وما أعده الله عز وجل للمجاهدين .

٤ - التربية على الإنفاق في سبيل الله عز وجل، والتضحية بالغالي والنفيس في سبيله عز وجل، وتخليص النفس من الشح وحب الدنيا .

٥ - الشعور بواجب الدعوة إلى الله عز وجل وتجميع الناس حول الإسلام والاهتمام بأمر هذا الدين، والغيرة على محارم الله عز وجل، وأن هذا الأمر يتفاوت وجوبه والإثم المترتب على تركه حسب حال العبد ومرتبته من العلم أو القدرة أو الغنى . . إلخ . ويوضح ذلك الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في كتابه القيم إعلام الموقعين حيث يقول :

«ولله سبحانه على كل أحد عبودية بحسب مرتبته، سوى العبودية العامة التي سوى بين عباده فيها؛ فعلى العالم من عبودية نشر السنة والعلم الذي بعث الله به رسوله ما ليس على الجاهل، وعليه من عبودية الصبر على ذلك ما ليس على غيره، وعلى الحاكم من عبودية إقامة الحق وتنفيذه وإلزامه من هو عليه به والصبر على ذلك والجهاد عليه ما ليس على المفتي، وعلى الغني من عبودية أداء الحقوق التي في ماله ما ليس على الفقير، وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز عنهما .

وتكلم يحيى بن معاذ الرازي يوماً في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقالت له امرأة: هذا واجب قد وضع عنا، فقال: هبي أنه قد وضع عنكن سلاح اليد واللسان، فلم يوضع عنكن سلاح القلب، فقالت:



صدقت جزاك الله خيراً .

وقد غر إبليس أكثر الخلق بأن حسن لهم القيام بنوع من الذكر والقراءة والصلاة والصيام والزهد في الدنيا والانقطاع ، وعطلوا هذه العبوديات ، فلم يحدثوا قلوبهم بالقيام بها ، وهؤلاء عند ورثة الأنبياء من أقل الناس ديناً ، فإن الدين هو القيام لله بما أمر به ، فتارك حقوق الله التي تجب عليه أسوأ حالاً عند الله ورسوله من مرتكب المعاصي ، فإن ترك الأمر أعظم من ارتكاب النهي من أكثر من ثلاثين وجهاً ذكرها شيخنا رحمه الله في بعض تصانيفه ، ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله ﷺ وبما كان عليه هو وأصحابه رأى أن أكثر من يشار إليهم بالدين هم أقل الناس ديناً ، والله المستعان .

وأى دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تُنتهك ، وحدوده تُضاع ، ودينه يُترك ، وسنة رسوله ﷺ يُرغب عنها ؛ وهو بارد القلب ، ساكت اللسان ، شيطان أخرس ، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق ، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين؟ وخيارهم المتحزن المتلمظ ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبدل وجد واجتهد ، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه .

وهؤلاء - مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم - قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون ، وهو موت القلوب ، فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى ، وانتصاره للدين أكمل<sup>(١)</sup> .

٦ - الإعداد الجسمي والعضلي لتحمل الجهاد ومشاق الطريق وذلك

(١) إعلام الموقعين (٢/١٧٦) .

بالرعاية الصحية والرياضة البدنية وركوب الخيل والسباحة والرماية وكل ما يحتاجه جهاد الكفار من إعداد وكل ما من شأنه إرهاب عدو الله وعدو المؤمنين قال تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وكل هذه الأنواع من الإعداد قد قام بها الرسول ﷺ وهو في مكة حيث لم يؤذن له بعد بالقتال، وقد يقول قائل: ما الدليل على أنه ﷺ كان يدرّب أصحابه على الرماية والرياضة في مكة؟

والجواب : إنهم لم يكونوا في حاجة إلى ذلك فطبيعة نشاطهم وبيئتهم وحياتهم كانت في الأصل طبيعة قتالية مدربة جاهزة لا يحتاجون معها إلا إلى الأمر ومجيء الوقت المناسب للجهاد.

٧- وقبل ذلك وبعده ( في الإعداد للجهاد ) يجب أن ترتبط النفوس المؤمنة بطلب رضا الله عز وجل وجنته قبل أن يحصل لها أي هدف في هذه الدنيا الفانية ولو كان إقامة حكم الله عز وجل؛ لأنه قد يتأخر إقامة علم الجهاد، وقد يبطل نصر الله عز وجل لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى، وقد يموت المؤمن الذي أعد نفسه للغزو والجهاد ولم ير ثمرة الجهاد، لكن حسبه أنه أعد نفسه وحدثها بالغزو ونجا من النفاق وسار في مرضات الله عز وجل، وهذا في حقيقته انتصار كبير.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى :

« ولقد كان القرآن ينشئ قلوباً يعدها لحمل الأمانة، وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع - وهي تبذل كل

شيء وتحتمل كل شيء - إلى شيء في هذه الأرض . ولا تنتظر إلا الآخرة ، ولا ترجو إلا رضوان الله . قلوباً مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية واحتمال ، بلا جزاء في هذه الأرض قريب . ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام وظهور المسلمين . . حتى إذا وجدت هذه القلوب التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض شيء إلا أن تعطي بلا مقابل ، وأن تنتظر الآخرة وحدها موعداً للجزاء . . وموعداً كذلك للفصل بين الحق والباطل .

وعلم الله منها صدق نيتها على ما بايعت وعاهدت ، أتاها النصر في الأرض وائتمنها عليه . لا لنفسها ، ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي وهي أهل لأداء الأمانة ، منذ كانت لم توعده بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه ، ولم تتطلع إلى شيء من المغنم في الأرض تعطاه ، وقد تجردت لله حقاً يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلا رضاه . فالنصر ليس بالعدد وليس بالعدة . وليس بالمال والزاد . إنما هو بمقدار اتصال القلوب بقوة الله التي لا تقف لها قوة العباد»<sup>(١)</sup> .

وختاماً أسأل الله عز وجل أن يرفع علم الجهاد وأن يقر أعيننا بنصرة دينه والتمكين لأوليائه ، وأن يجعلنا من الذين ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] .

كما أسأله سبحانه أن يجمع كلمة دعائه الصادقين على الحق ، وأن يوحد صفوفهم ويؤلف بين قلوبهم ، وأن يعيدهم من نزغات الشيطان ، وأن يريهم

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن ، ص ٣٦١ .

الحق حقاً ويرزقهم اتباعه ، ويريهم الباطل باطلاً ويرزقهم اجتنابه .  
اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم  
الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ؛ اهدنا لما  
اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .  
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد  
وآله وصحبه .

\* \* \*

## فهرس المجلد الأول

٥ ..... مقدمة

### الرسالة الأولى ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا﴾

١٣	..... أهمية الموضوع
١٨	..... تعريف العدل ومنزلته في الكتاب والسنة
٢٧	..... أقسام العدل
٣٢	..... من لوازم العدل ومقتضياته
٣٢	١ - التثبت من الأمر قبل الحكم عليه
٣٤	٢ - العدل في النقد ومعالجة الخطأ
٤٠	٣ - الفرح بإصابة الغير للحق
٤١	٤ - الشهادة للمحسن بإحسانه
٤٥	٥ - الابتعاد عن النجوى
٤٦	٦ - سلامة القلب
٤٩	٧ - الصدق والوضوح
٥٢	..... الخاتمة

### الرسالة الثانية ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُ بِوَاحِدَةٍ﴾

٥٩	..... مقدمة
٦١	..... تفسير الآية
٧٠	..... أهمية هذا الموضوع

٧١	الفرق بين الجدال والحوار
٧٣	بعض الآيات والأحاديث الواردة في آداب الحوار
٧٥	أصول الحوار :
٧٦	الأصل الأول : الإخلاص
٨٠	الأصل الثاني : العلم
٩٠	الأصل الثالث : ظروف الحوار

### الرسالة الثالثة

#### ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾

٩٩	مقدمة
١٠٤	أهمية الموضوع
١٠٦	مساوئ القلوب وأمراضها
١١٠	مرض الحسد
١١٢	أمراض الشرك الخفي
١١٥	شهوة الدنيا والركون إليها
١١٨	مخالفات في الهدى الظاهر
١١٩	منكرات البيوت
١٢٠	إهمال تربية الأهل والأولاد
١٢٢	التفريط في حقوق الوالدين
١٢٣	التساهل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
١٢٣	التساهل في صلاة الجماعة
١٢٤	التفريط في طلب العلم
١٢٤	آفات اللسان
١٢٦	التفريط في غض البصر

١٢٧	الرضى من النفس بالدون
١٢٨	السفر إلى بلاد الكفر
١٢٨	التهوين من شأن العلماء
١٣٠	الحزبية المقيتة
١٣٠	إهمال كتاب الله عز وجل
١٣٢	التفريط في كسب الحلال
١٣٢	الجبن والبخل
١٣٥	نقل الأخبار دون تمحيص
١٣٦	التصدر للتدريس والجرأة على الفتوى
١٣٦	الغلظة والفظافة
١٣٨	الخاتمة

### الرسالة الرابعة

#### ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

١٤٥	مقدمة
١٤٧	منهج دراسة آيات الأسماء والصفات
١٥٠	الآثار القلبية للأسماء والصفات
١٥١	معنى اسم (الحكيم العليم)
١٥٣	أنواع أحكام الله عز وجل:
١٥٣	الحكم الشرعي الديني
١٥٤	الحكم الكوني القدري
١٥٦	اللوازم القلبية لاسم الله (الحكيم)
١٥٦	الحقيقة الأولى

١٦٣	.....	الحقيقة الثانية
١٦٧	.....	دروس من أحداث الخليج
١٦٧	.....	الدرس الأول : التعرف على سنن الله عز وجل في التغيير
١٦٩	.....	الدرس الثاني : تمييز الخبيث من الطيب
١٧٠	.....	الدرس الثالث : أهمية التوحيد والتربية عليه
		الدرس الرابع : صحة الفهم وحسن القصد ودورهما في
١٧٥	.....	درة الفتنة
١٧٩	.....	الخاتمة

### الرسالة الخاصة

#### ﴿ متى نصر الله ﴾

١٨٣	.....	متى نصر الله ؟
١٩٧	.....	من سنن الله عز وجل في النصر :
١٩٨	.....	السنة الأولى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾
		السنة الثانية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا
٢٠٨	.....	بأنفسهم ﴾
		السنة الثالثة : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا
٢٢٣	.....	أَمْثَالَكُمْ ﴾
٢٢٤	.....	محصلة السنن الثلاث
٢٢٥	.....	عوائق في طريق النصر
٢٢٦	.....	أولاً : العوائق الخارجية
٢٢٧	.....	ثانياً : العوائق الداخلية
٢٣٣	.....	المعالم الرئيسية لمنهج التغيير الصحيح